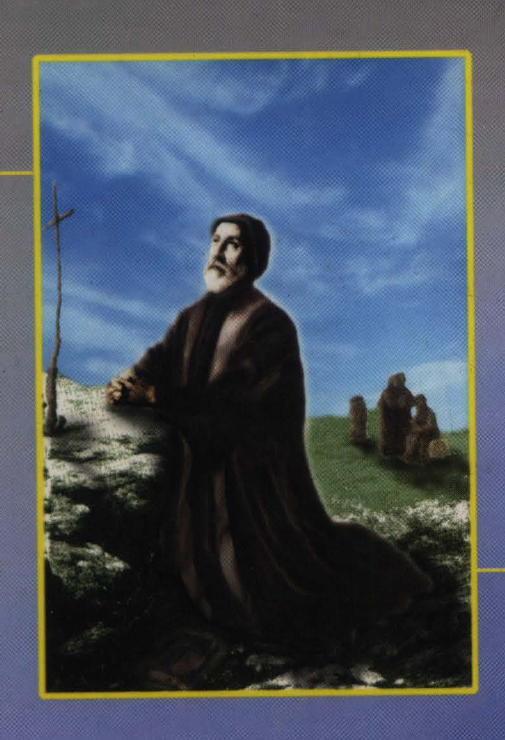
الموارنة

سؤال في الهوية



سركيس أبو زيد



المـــوارنــــة

سؤال في الهويـة

سركيس أبو زيد



الطبعة الاولى

بيروت ـ شباط ٢٠٠٠

الناشـر : دار ابعاد للطباعة والنشر

بيروت ـ شارع منيمنة ـ بناية تابت

التوزيع : بيسان للنشر والتوزيع والإعلام ،

راس بيروت ، شارع مهاتما غاندي

فاكس : ٠١ /٧٤٧٠٨٩ ـ هاتف : ٠١ /٧٤٧٠٨٨

ص .ب : ١٣ـ٥٢٦١ بيروت ـ لبنان

تصميم الغلاف والطباعة: ايلي معلوف



سؤال في الهوية . . .

الحياة كلها سؤال مستمر عن المعنى

والمعنى تائه بين الذاكرة والخيال

بين الصراع والحب

بين الخيبة والأمان

الى التي طاقتها في طرح الأسئلة عن الحب والخراب

عن الهوية والمعنى

أكبر من قدرتي على الجواب

والسؤال دوماً أقوى من الجواب .



كأنها خلاصة

هل الماروني تائه في تاريخ طائفته ، أم هو تائه في تاريخ منطقته ، أم ان الباحثين تاهوا عنه ، فرسموا له صورة تشبه الظروف السياسية التي أحاطت به ، وفقا لنمطية ذهنية ، رأت الى الجماعات ، على أنها كتل «لا تاريخية» لا تخضع لنواميس التطور ، بما فيها من تنابذ وتفاعل وتناقض وانفتاح وانغلاق؟

هل الماروني ، هو ابن التاريخ ام انه وليد الاسطورة؟ اذاً ، ما هويته ، وكيف تُقرأ؟ هذه الأسئلة وسواها تشكل سلسلة من حلقات البحث العقلاني والتاريخي في هذا الكتاب ، وفق منهجية نقدية ، لا تستسلم للمسلمات الثقافوية ، الشعبوية ، السياسية ،

التي التصقت بالمارونية ، وروجت لها ، على انها هي الهوية الحقيقية للمارونية ، وهي الصورة الواقعية «لصيرورتها في الثبات» .

لا يترك المؤلف الأسئلة جانبا ، يحملها الى كل الامكنة المسموحة والحذرة في آن . فيسأل عن مار مارون ، هل هو ابو الطائفة ام ان هناك أباً آخر لها ، وما علاقة هذه الابوة بالابناء؟ ام ان هناك مدرسة زهدية قديمة ، من تراث الزهد المشرقي ، تبوأت مرتبة في القداسة ، بعيدا عن السياسة في البداية ، ثم وجدت نفسها ، كتيار فكري لاهوتي ، متعارضة مع سلطات دينية ، تمارس الزمنيات بالقوة بدل الإقناع ، فانحازت الى ذاتها وتراثها ، وباتت كنيسة ـ مؤسسة ، بدل ان تبقى تياراً؟

ثم . . . هل ما كتب عن مار مارون ، هو رسم حقيقي لهذا القديس ، ام ان هناك اضافات اخرى؟ . . . وما دور يوحنا مارون ، في بعث المارونية او في تأسيسها على الأدق؟

نهج السؤال ، يجد جوابه في العودة الى مسألتين ، عند سركيس ابو زيد :

الاولى : قراءة الوثائق التاريخية الاصلية ، من معينها الاول ، قبل ان تتدخل فيها التأويلات ، وتخضعها لمنطق القسمة

السياسية ، (مع او ضد) . وفق قراءة مسبقة ، تسبغ على النص آفة «التقويل» وبدعة «التأويل» .

الثانية : تفكيك عناصر المعطى التاريخي ، وفق منهج متحرك ، لا يعتمد على جمود الظاهرة وكليتها ، فيتعاطى مع الجماعة على انها «جماعات» صغيرة ، تلتقي وتختلف وتتفاعل وتتنابذ وتتناقض ، ما يفقدها صفة الشخصية - الهوية الثابتة ، ويضعها في سياق تفاعلي مع محيطها .

فالمارونية ، موارنة متعددون في «المارونية الأم» . فهم ليسوا كتلة واحدة متماسكة عبر التاريخ ، ومن الادلة على ذلك ، وهذا ما يكثر منه المؤلف ، ان الموارنة لم يرتبطوا بالغرب الصليبي ، زمن حملاته في المنطقة ، بل ان فريقا ارتبط بها ، وفريقا آخر رفضها وقاتلها ، شأنهم في ذلك ، شأن المسلمين السنّة ، الذين انقسموا الى «جماعتين» ، واحدة تحالفت مع الصليبيين واخرى عادتهم وقاتلتهم .

ففي مشهد تاريخي واحد عبّر الموارنة عن نفسهم سياسياً بطريقتين متناقضتين ، كما عبّر عن ذلك السنة انفسهم ، ما يجعل اختصار طائفة او مذهب في كتلة واحدة ، غير دقيق ، ومضراً تاريخيا ، لأنه يؤسس «لعقائد» طائفية - سياسية ، مسنودة الى تاريخ لا سند حقيقيا له .

فالموارنة ساندوا صلاح الدين الايوبي ، فيما كانت الباطنية والاسماعيلية ونور الدين اسماعيل ، يصطفون الى جانب الفرنجة في حروبها الصليبية .

تعاون الموارنة في حلف مقدس في طرابلس ، كما ان بعضهم وقف الى جانب الاتابكة في دمشق ضد الفرنجة .

يسقط إزاء هذا المنهج ، تعميم الصفات على الجماعات ، فليس الموارنة «خونة» ، كما لم يكن السنّة «خونة» ، في المرحلة الصليبية ، لأن «الجماعات» وقفت مواقف متعارضة من مسألة واحدة محددة تاريخية .

مع سقوط التعميم تسقط الاتهامات ، وينكشف منطق التعتيم الذي اعتمده بعض المؤرخين ، لإسباغ الصورة التي تناسب مصالحهم على الموارنة ، لتجييرهم وعزلهم في موقع لا يتناسب ابداً ، ومع الحقب التاريخية التي جربتهم وجربوها .

وما يقال في المارونية في السياسة ، يقال في المذهب ، فقد تشيع بعضهم لروما ، وبعضهم وقف ضدها . . . في مرحلة الاجتهادات الدينية التي بحثت فيها طبيعة المسيح ومشيئته ، وانقسم المسيحيون في الشرق على قاعدة الولاء لهذه النظرية او تلك .

من نتائج هذا المنهج المتحرك ، الذي لا يرى الى الجماعة على انها كتل متماسكة ، أن تتضح صورة اعادة تركيب المعطى التاريخي ، وفق قانون تنتظم فيه علاقات الجماعات بمحيطها .

فبما ان الجماعة ليست كتلة واحدة ، فان قانونا يحكم علاقتها بنفسها وبالآخر . ولا انفصال بين الذات والآخر في اطار حركية هذا القانون . فالجماعات عبر تأثرها بالآخر ، يسود فيها تيار الانغلاق والعزلة والخوف والاعتماد على القوة ، اذا كان الاطار المحيط بها ، يستدعي حماية للذات . بينما يسود تيار الانفتاح والاعتدال والتفاعل والتسامح ، اذا كان الاطار المحيط يبعث على الاطمئنان ، ويحترم الخصوصيات المذهبية والدينية ، ولا يتعرض لتسلط وطغيان او تهديد .

في هذا المنطق ، تكمن حركية الجماعات . فعزلة الموارنة ، وهي من مميزات الشخصية المركبة ، تسببت بها سيطرة الدولة الدينية ، أكانت بيزنطية ام اسلامية ام عثمانية . وعزلة الموارنة في سهول الشمال السوري ولجوؤهم الى الجبال ، لم يكن نزوعا ذاتيا ، بقدر ما كان دفعاً من خارج التقى مع رغبة اكيدة في الحفاظ على الذات . وطبيعي ان يتغذى الانغلاق والمغالاة في الانطواء من مُعينَين : الاول خارجي ، والثاني يقوم على زيادة الشعور بالغربة عن الخارج وتحويل الخوف الموقت الى ما يشبه عقيدة التخويف .

بالخارج بهذه النظرة الحركية لآليتي انفتاح وانغلاق الجماعات ، تسود الصورة النمطية السهلة . وتصبح الجماعات مجموعة عناوين تبسيطية ، يسهل تحويلها الى «حقائق تاريخية» في خدمة أغراض سياسية .

فلا بحث في الجماعات ، خارج علاقتها بالمجتمع وآلياته . فالمجتمع الديموقراطي ، يؤهل تيار الانفتاح في كل جماعة للانتصار على تيار الانغلاق ، فيما يؤمن المجتمع التسلطي الاوتوقراطي التمييزي ، لانتصار تيار الانغلاق في الجماعة ، مع ما يستدعي ذلك من تمزيق عنيف لنسيج المجتمع ككل . والحرب اللبنانية كانت احد تجليات ثنائية الانفتاح المخنوق ، والانغلاق المدعوم من الداخل والخارج معا .

فما الهوية التي تاهت بين الذات والآخر؟

ألم تكن عزلة مصحوبة دائما بمحاولات للخروج منها؟

ألم تكن خوفاً مقروناً بتجارب التحرر منه؟

ألم تكن عقدة تفوّق مترافقة مع نزوع الى المساواة؟

ألم تكن تمرداً وعنفواناً ، مطعّمة بمصلحة الدخول في احلاف واعلان الولاء؟

أليست هذه الازدواجية هي التي طبعت «الهوية» المارونية؟

أليست هذه هي خصوصيتها، المتبلورة تاريخيا، والمعبّر عنها في مشاهد سياسية معاصرة، بينما لم تغب هذه «الازدواجيات» عن جماعات اقلوية، لم تطمئن الى سلوك الاكثرية، ولا الى كيفية تعاطيها مع الاقليات الاخرى.

ان تفكيك الجماعات الى عناصر واقعية، وجعلها جماعات تاريخية، منخرطة في التأثر والتأثير، يسلّط الضوء على ارهاصات حل نظري لهذه المشكلة، «اذ ليس من مسؤولية أيّ طائفة ولا في مقدرتها ان تحل مشكلتها بمعزل عن التطور الاجتماعي، الاقتصادي، الثقافي».

وخارج هذا الاطار - الحل، تحمل كل جماعة - طائفة مشروع هيمنة على الآخرين والمجتمع، بواسطة سلطتها الذاتية إن استطاعت، او بواسطة السلطة السياسية القائمة كما هي الحال، في لبنان، حيث انتظمت الهيمنة قبل الحرب للطائفة المارونية، فيما توزعت بعد الطائف، الى اكثر من طائفة.

تفكيك الجماعات الى عناصرها التكوينية، واطلاق عملية التأثر والتأثير والتفاعل، تؤمنها ديموقراطية حقيقية، وليس الديموقراطية التوافقية، التي تختزل الناس في طوائف مغلقة وفق النظرة النمطية، على ان كل طائفة هي شخصية مستقلة، وليست

مُـركَّباً من تيارات ونزعـات ومصالح . فالتوافقية تتأسس على فهم خاص وخاطئ لمعنى التعددية ، التي تختصر المواطنين المتعددين في الجماعة النمطية ، والتي تحتاج في قوامها السياسي الى ضمانات داخلية ، غير ميسورة ، وحمايات خارجية ، غير مضمونة النتائج ، بسبب تعدد الحمايات وتناقض مصالح الحماة .

قيمة هذه الدراسات التي جمعها المؤلف سركيس ابو زيد في هذا الكتاب ، أنها كتبت على فترات من الحروب الاهلية اللبنانية ، ولا تزال صالحة بعد اعلان «التعب اللبناني» حالة «السلم الاهلي» الهش .

كما تكمن القيمة العلمية ، في انها تخترق السائد من الكلام اللاعلمي ، حول الجماعات اللبنانية ، والتي تتناغم ومتطلبات النظام السياسي القائم ، الذي يحتاج دائما الى بدلة التعدد ، وإعادة التأسيس لها ، عبر «صفقات دموية» موسمية ، تستعاد فيها صورة الجماعات البشعة بكل ما فيها من «لاتاريخية ولاعلمية» .

في هذا الكتاب دعوة مبطّنة الى الكتّاب والباحثين لإعادة قراءة المجموعات والأقليات ، على أنها كتل تاريخية ، قابلة للتفكيك الى عناصرها الذاتية والاجتماعية ، لتستقيم النظرة الى التاريخ . فالتعميم في هذا المضمار ، ليس جزءاً من خطأ معرفي فقط ، بل هو طامة كبرى ، عندما يتحول الى خطايا مميتة في

التعاطي مع هذه الاقليات ، كدوغما جامدة ، ولا خيارات أخرى .

المارونية هنا نموذج . . . وينسحب هذا النموذج النقدي على الطوائف والأقليات والاثنيات الأخرى . كما ينسحب في الأساس على . . . الأكثرية .

دعوة مبطّنة؟

بل دعوة صريحة الى الكشف والمكاشفة والمعرفة . . . بلا خلفيات ولا ضوابط مسبقة ، وتصورات جَماعية وقَبْلِيَّة .

نصري الصايغ

في ١/ ١/ ٢٠٠٠





الفصل الأول

نظرة جديدة الى تاريخ الموازنة



- ١ -

هل مار مارون هو أبو الطائفة المارونية؟ (*)

يجمع مؤرخو الطائفة المارونية ، اليوم ، على اعتبار مار مارون الناسك أباً للطائفة المارونية . وتعترف بقداسته كل من الكنيسة الرومانية والبيزنطية . فمن هو مار مارون؟

هناك مصدران وحيدان ، تاريخياً ، عن حياة القديس مارون :

الأول ، رسالة من يوحنا فم الذهب ، بعث بها من منفاه حوالى السنة ٤٠٤ أو ٤٠٥ م ، ويطلب فيها اليه ان يذكره بصلواته . لكن الرسالة لا تقول شيئاً عن حياة مار مارون . وجاء في نص الرسالة :

(*) نشرت في جريدة «السفير» على حلقات ابتداءً من ٢٩/ ١٠/ ١٩٨٠ .

«الى مارون الكاهن ا لراهب

امّا بعد فان علاقات المودة والمعروف التي تضمّنا اليك تجعل ابصارنا شاخصة اليك كأنك قائم هنا فان بواصر المحبة من طبعها ان لا يحجبها بعد المسافات ولا يوهنها طول الزمان وكان في ودنا ان تكون مكاتباتنا اليك متتالية ولكن يحول دون ذلك مشقة الاسفار وندور المسافرين والآن نهدي اليك طيب السلام ونسألك ان تتيقن اننا نذكرك كل حين وان لك في فؤادنا منزلة اينما حللنا، فاهتمّ انت اذاً بأن تواتر إلينا أنباء عافيتك فإنّ أخبار صحتك على بعدنا بالجسد تولينا عظيم السرور وتخوّلنا تعزية كبرى في غربتنا ووحدتنا ويلذّ لنا كثيراً ان نعلم انك متعاف وجلّ ما نسألك اياه ان تصلي وتبتهل لله من اجلنا». (١)

الثاني ، كتاب عن حياة النساك (٢) وضعه تيودوريتس ، أسقف قورش (٤٢٣-٤٥٨م) ، وردت فيه لمحة عن حياة الناسك مار مارون ، تقول :

---

(١) نشر هذه الرسالة الأب مين في المجلد ٥٢ من مكتبة الآباء الشرقيين . اعتمدنا تعريب الاستاذ رشيد جريج عن الأصل .

(٢) ان «تاريخ رهبان سوريا» الذي وضعه تيودوريتس حوالى سنة ٤٤٠م ، وفيه ادرج هذه النبذة في الفصل ١٦ ، كتب باللغة اليونانية ، وقد ترجمه منها بالفرنسية العالمان بيير كانيفه Pierre Canivet ، وأليس لوروا - مولانغين Alice Leroy Molinghen ، ونُشر في جزءين في فرنسا العام ١٩٧٧ و١٩٧٩ . عرّب هذه النبذة عن النص الفرنسي المذكور الاستاذ رشيد جريج ، مع الاشارة بأن الترجمات السابقة مختلفة ومجتزأة .

مارون [١]

تقترن ذكرى مارون بالشهرة الواسعة التي احرزها اسمه، فهذا الاسم يزيّن جوقة قدّيسي الله. لقد اختار مارون حياة التوحّد في البرّية[٢] فانتحى قمة جبل كان الوثنيون، سابقاً، يحيطونه بالتكريم، فكرّس[٣] لله الموضع الذي كان الشياطين يمتلكونه من هذا الجبل، وعاش هناك، حيث ابتنى لنفسه كوخاً صغيراً، مع انه لم يكن يأوي اليه الا نادراً. لم يكتفِ مارون بأعمال الورع المعتادة، بل ابتكر لنفسه ممارسات تقويّة أخرى، وأخذ يجمع كنوز الحكمة.

كان الحكم الأسمى يغدق عليه النعمة على قدر استحقاقاته. فهكذا أنعم عليه تعالى من لدنه بموهبة شفاء المرضى، بحيث ان صيت مارون ذاع في كل مكان، وغدا الجميع يتوافدون اليه من كل حدب وصوب، مثبتين بالوقائع صدق المعجزات التي تجري على يديه. بالفعل، كانت لواعج الحمّى تنطفئ فور هطول ندى بركاته على المصابين بها، وقشعريرة البرداء تهدأ فور مثول ضحاياها أمامه، والشياطين تولي الأدبار، والآلام، أياً كانت، تزول بفعل علاج بركته الوحيد. المعروف ان الأطباء يعالجون كل مرض بدواء خاصّ به، لكن صلوات القديسين هي علاج يشفي من الامراض كافة.

---

(١) يلاحظ ان الايجاز الذي اعتمده تيودوريتس في كتابة هذه النبذة، والافكار العادية التي تطرّق اليها في سياقها، لا تتناسب والأهمية التي اضفاها التقليد اللاحق على شخصية مارون.

(٢)) لا يقدم تيودوريتس ايّ عنصر يمكن اعتماده في القول بأنّ مارون بنى ديراً ما.

(٣) واضح من كلام تيودوريتس ان مارون كرّس لله أحد المواضع ولم يبنِ له كنيسة.

لم يكن فعل مارون ليقتصر على شفاء الاجسام السقيمة فحسب، بل كان ايضاً يوفّر للنفوس العناية الملائمة، شافياً بعضها من الأهواء المتطرفة، وبعضها الآخر من النزعات العدائية، هادياً هذا الى فضيلة العفّة، معلّماً ذاك العدالة، مصلحاً لدى بعضهم شواذ السلوك، مؤنّباً بعضهم الآخر على فتوره.

باعتماد هذه الطريقة التربوية كان مارون يتعهّد النفوس كما يتعهد البستاني أغراسه، فأنبت، هكذا، الكثير من نبتات الحكمة الصالحة، بل انه هو الذي أعدّ لله هذه الحديقة البديعة التي نراها اليوم مزهرة مثمرة في منطقة القورشية، فيعقوب الكبير هو إحدى أغراسه المباركة، وفيه يصحّ قول النبي: «البار يزهر مثل شجرة النخيل، وينمو ويتفرّع مثل أرز لبنان». بل ان النسّاك الابرار الآخرين الذين سأتطرّق الى سيرتهم، باذن الله، هم جميعهم من منابت حديقة مارون.

بعد ان وقف مارون حياته على تعهّد الغرس الإلهي، معتنياً بصلاح النفوس وشفاء الاجساد معاً، توفي إثر مرض الّم به فترة قصيرة من الزمن، وكأنّ الله تعالى أراد تذكيرنا بضعف الطبيعة البشرية وبقوة ارادة رجله البار.[١] وتجدر الاشارة الى ان عراكاً عنيفاً نشب بين سكان القرى المجاورة لمنسك مارون، فور وفاته، سببه رغبة كل مجموعة منهم بالاستيلاء على رفاته. كانت النتيجة ان اهل بلدة مجاورة كثيرة السكان هجموا بصورة كثيفة فطردوا الجماعات الاخرى واستحوذوا على هذا الكنز الثمين، ومن ثمّ ابتنوا لجثمان الناسك القديس ضريحاً كبيراً، ومن يومها

---

(١) توفي مارون قبل وصول تيودوريتس الى القورشية.

حتى الآن ما زالوا يجتنون من وجوده النفع العظيم، ويكرمون ذكراه بعيد حافل. أمّا نحن فسنظلّ ننعم ببركته على الرغم من المسافة التي تفصلنا عنه، لأننا، وان كان جدثه بعيداً عنا، نكتفي بالحفاظ على ذكراه.

ما كتبه تيودوريتس باختصار ، هو كل ما نعرفه عن حياة مار مارون ، حتى إن فؤاد البستاني يقول : «فكان كلامه عن مار مارون ، المصدر الوحيد الذي نستند اليه» . [١]

ومع ذلك ، لقد اجتهد المؤرخون في محاولة شرح وتفسير النص الذي كتبه تيودوريتس ، وذلك من اجل تحديد المكان الذي عاش وتنسّك ودفن فيه ، ومن اجل استنباط طريقة عيشه وأسلوبه في التنسّك وعقيدته اللاهوتية ، فضلاً عن تحديد تاريخ ومكان ولادته ووفاته . وقد تباينت هذه المحاولات لقلّة المراجع التاريخية من جهة ، والكلام العام الذي وصف به تيودوريتس حياة مار مارون ، من جهة اخرى .

ومع ذلك ، جالت مخيلة بعض المؤرخين في متاهات الاستنتاج ، وأنشأ كل منهم سيرة خاصة به لحياة الناسك ، مستوحياً الاساطير ، فجاءت مروياتهم متناقضة ، تغلّب التقاليد على المرجعية التاريخية .

---

(١) الفصول ، عدد ٣ ، ص ١٠ . وهذه الدراسة هي جزء من كتيّب «مار مارون» الذي اصدره البستاني في السنة ١٩٦٥ واعاد نشره في طبعة ثانية منقحة سنة ١٩٦٨ .

لا مجال هنا ، بالطبع ، لعرض خلافات المؤرخين حول حياة مار مارون ، بل اننا نكتفي بسرد أقوال بعضهم .

يقول المؤرخ فيليب حتي ، في معرض كلامه على مار مارون : «لا يعرف عن حياته شيء كثير»[١] . اما أسد رستم فيؤكد قائلاً : «ولا نعرف بالضبط سنة ولادته ولا المكان الذي ولد فيه ، ولا محل تنسكه»[٢] . وذلك يعود ، برأي فؤاد افرام البستاني ، الى كون ترجمة القديس مارون التي وضعها تيودوريتس «تكاد تظهر خالية من المعلومات الجغرافية . فلا ندري بالضبط في أي مكان من القورشية تنسك . . . وهناك بعض الاختلاف كذلك في تعيين منشأ القديس»[٣] .

دور مار مارون

أما السؤال الاساسي الذي لم يطرحه البستاني ولا غيره ، والذي لا بد من تداوله ، فهو ما اذا كان مار مارون هو نفسه مؤسس الطائفة المارونية ، وكيفية هذا التأسيس . فلا تشير المعلومات التاريخية التي دوّنها تيودوريتس عن مارون الناسك ، بأي شكل من الاشكال ، الى ان مار مارون قد أسس طائفة جديدة او مذهباً

(١) تاريخ سوريا ، فيليب حتي ، ج٢ ، ص ١٤٠ .
(٢) تاريخ الروم ، أسد رستم ، ج١ ، ص ١٠٥ .
(٣) الفصول ، عدد ٣ ، ص ١٠-١١ .

جديداً ، ولا أنه أنشأ بدعة جديدة مميّزة تولّد منها اتجاه او تيار ، التفّ حوله الناس ، وشكلوا على قاعدته فرقة دينية جديدة .

كل ما نعرفه عن مار مارون ، هو أنه أحد نساك القورشية وحسب . والناسك ، هو من اعتزل العالم وانصرف وحيداً الى التعبّد والصلاة ، فإذا مرّ به زائرون ، بشّرهم بالفضيلة وأعطاهم البركة ، او اذا قصده طلاب نسك ومريدون علّمهم طريقته واسلوبه ، ليمارسوهما وحدهم بأسلوبهم الخاص .

لم يكن مار مارون ، صاحب مدرسة خاصة للتنسك في العراء . و« لم يبتكر القديس مارون هذه الطريقة ، اذ قد مارسها قبله يعقوب النصيبيني ، أحد مؤسسي المدرسة الميزوبوتامية . . . اعتنق الحياة النسكية واتخذ مقراً له قمم أعلى الجبال . كان يقيم في الغابات أيام الربيع والصيف والخريف لا غطاء له إلا السماء . . . وتطورت هذه الطريقة مع القديس مارون الذي آثر الحياة في العراء صيفاً شتاءً وليلاً نهاراً . . . والقديس مارون أخذ طريقته النسكية أي الحياة في العراء عن القديس يعقوب أسقف نصيبين وناسكها (+٣٣٨ م)»[١] .

عاصر مار مارون نساك آخرون اعتمدوا طريقة الحياة في

---

(١) تاريخ الموارنة ، الأب بطرس ضو ، ج١ ، ص ٧٥ و٥٠ .

العراء . أشهرهم زابينا الذي عبر مار مارون عن اعجابه به « حاثاً كل زائريه على الذهاب الى زابينا لاستمداد بركته . . . وكان مارون يدعو الناسك زابينا أباه ومعلمه والمثال الكامل لكل انواع الفضائل ، وطلب بإلحاح شديد أن يوضع جثمانه في قبر واحد مع جثمان زابينا»[١] .

وعن أهمية دور «القديس زابينا المرشد» وتأثيره على مار مارون يقول فؤاد افرام البستاني : «انه كان أسنّ من القديس مارون ، على ما يظهر ، وكان مارون يوقر شيخوخته النقية ، ويعظم فضائله ، ويقتدي ببعض طرائقه التقشفية ، ويدعوه أباً ومعلماً . . . .»[٢] .

أورث مارون نساكاً آخرين طريقته في التنسك ، كما أخذها عن يعقوب ناسك نصيبين ، أو عن زابينا . ومن النساك الذين اتبعوا طريقته ، نذكر يعقوب القورشي ، الذي قال عنه تيودوريتس : «فاق معلمه - أي مارون - بعظم تقشفاته وأعماله : مارون اكتفى ببقايا هيكل بيتاً ، وبجلود الماعز ثوباً يقيه المطر والثلج ، أما يعقوب فرفض كل شيء ، البيت والسقف والكوخ ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .
(٢) مار مارون ، فؤاد افرام البستاني ، ص ٣٨ .

متخذاً من السماء غطاءً وحيداً له . . . ويعقوب الالهي يقول ان زابينا هو الذي وشحه بأول رداء من شعر ماعز لبسه» [١] .

بلغت هذه الطريقة في التنسك ذروتها ، مع النسّاك العموديين أمثال مار سمعان العمودي ، الذي هو أشهرهم . وهو قديس مارس طريقة أكثر تطرفاً من طريقة التنسك في العراء وعلى الارض ، كما مارسها يعقوب النصيبيني ومار مارون ويعقوب القورشي ، او غيرهم . . . فلقد أمضى مار سمعان وتلاميذه حياتهم على قمة عمود ، ارتفع عن الارض أحياناً بحدود ستة وثلاثين ذراعاً ، بهدف التقشف الوحيد وتعذيب الجسد ، وفقاً لميل صوفي روحاني أفضى الى الانقطاع الكلي عن العالم .

ينضوي زابينا ويعقوب ومار مارون ومار سمعان ، وغيرهم من نساك العراء جميعاً ، تحت لواء المدرسة السورية في التنسك ، اي المدرسة التي تتميز بوسيلتها في «الاقامة في العراء ، أي الهواء الطلق صيفاً وشتاءً ، لا في بيت مسقوف»[٢] .

وما يؤكده الباحثون الاختصاصيون كتشالنكو وتشوبتز عن التنسك ، هو ان «مدرسة سوريا الشمالية متصلة أصولها وجذورها بالمدرسة الميزوبوتامية . . . كانت سوريا الشمالية تتبع خطاً

---

(١) ضو ، المرجع السابق ، ص ٩٣ و١٠٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٥ .

مستقلاً . ويبدو ان الخميرة أتت من منطقة الرها التي كانت آنذاك مركزاً نشيطاً للنسك» [١] .

نستخلص من كل ما تقدم بأن مدرسة التنسك في العراء أسسها في العراق يعقوب أسقف نصيبين وهو أول ناسك وصف سيرته تيودوريتس في تاريخه الرهباني .

أما زابينا ومار مارون ، فهما أخذا التنسك في العراء عن يعقوب النصيبيني ، مطوّرين إياه ، مثلما طوره من بعدهما يعقوب القورشي وسمعان العمودي وغيرهما . . .

تلاميذ الناسك مارون

يمكن الاستنتاج اذاً ، أن مار مارون لم يؤسس لمدرسة في التنسك خاصة به ، والذين اعتبروا تلاميذ له ليسوا غير نسّاك قلّدوه في حياة العراء . فمار مارون نفسه لم يضع نظاماً خاصاً يصلح لأن يتبعه تلاميذ ، ولم يؤسس بالتالي أي رهبنة . فشتان ما بين الحياة النسكية والحياة الرهبانية ، حيث ان الحياة النسكية هي حياة فردية تصوّفية منعزلة عن العالم ، والحياة الرهبانية حياة جماعية داخل دير ، وذات رسالة تؤديها في محيطها . ولم يذكر لنا تاريخ تلك الفترة وجود طائفة أسسها ناسك ، حتى نقول ان مار مارون الناسك هو مؤسس الطائفة المارونية . ولم يرد في أي مرجع

---

(١) G. Tchalenko, Villages Antiques de la Syrie du Nord, Paris, 1953 T.1, P.147.

تاريخي، أن تلاميذ مار مارون النساك تحولوا الى رهبنة ، وبالتالي الى طائفة ، والاختلاف جذري وكبير بين مسلك الرهبان وحياتهم ، ونظام الجماعة الطائفية .

لكن مؤرّخي الطائفة المارونية ، يحمّلون تلاميذ مار مارون النساك ، دوراً «أسطورياً» لا يمتّ الى التاريخ بصلة .

يقول الأب بطرس ضو : «بقولي تلامذة مار مارون ، لا أعني أنهم كلهم عرفوا شخصياً مار مارون وتدربوا على يده في الحياة الرهبانية ، وإن كان هذا غير مستحيل ، ولكن اقصد أنهم تبعوا طريقة مار مارون في النسك والحياة في العراء»(١) .

الواقع أن نساك العراء ، بحسب ما تذكرهم كتب التاريخ ، قد عرفوا بتلاميذ «المدرسة السورية» في التنسك . أما الذين تميزوا في هذه المدرسة نتيجة لتطرفهم ، أمثال سمعان العمودي ، إنما عرفوا بالعموديين ، أي نسبة الى أول من مارس هذا النوع من التنسك . بينما لم تطلق على الذين قلّدوا مار مارون في طريقته أي صفة مميّزة ، ولم يأت اي ذكر لكلمة مارونيين او موارنة او ما شابه ، قبل اوائل القرن الثامن ، ما يؤكد ان مارون الناسك لم يؤسس مدرسة لها نظامها وقوانينها ، ولها عقيدتها وخصوصيتها ، فينتسب اليها

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

تلاميذ يعرفون باسمها . ذلك ما يذهب اليه البستاني بقوله : «بيد أنه لا يبدو لنا أن هؤلاء التلاميذ اجتمعوا في حلقة رهبانية منظمة ، موحّدة بإشراف رئيس واحد ، إلا بعد وفاة القديس بمدة قد تتجاوز نصف قرن . وكان ذلك في دير مارون الكبير . . .» (١) .

بعد ان يعرض ترجمة تيودوريتس عن حياة مار مارون ، يمضي البستاني فيؤكد قائلاً : «وتنقطع المعلومات عن مار مارون ، ولا عجب ، حتى اوائل القرن السادس ، وإذا بنا نشهد بناءً فخماً في وادي العاصي . . . شيد على اسم مار مارون . . .» (٢) .

فالاخبار التي نقلها تيودوريتس ، هي إذاً كل المعلومات التاريخية التي نعرفها عن مارون الناسك وعن تلاميذه . وترسم هذه الاخبار الاطار الصحيح لدور مار مارون ، قاصرة تأثيره على بعض النسّاك الذين قلّدوه ، دون ان يعني ذلك انه اسس مدرسة جديدة او طائفة مميزة . لكن البستاني وغيره من المؤرخين الموارنة ، يرغبون في اقامة تواصل اسطوري بين مارون الناسك من جهة ، ودير مار مارون على العاصي من جهة أخرى ، وحجتهم على هذا التواصل مفارقة «انقطاع المعلومات» في خلال فترة زمنية تزيد على القرن . غير ان تشابه الاسماء بين الناسك والدير ، ليس بالدليل

---

(١) مار مارون ، فؤاد افرام البستاني ، ص ٤٧ .

(٢) الفصول ، عدد ٣ ، ص ٨ .

على ان الدير قد سمّي نسبة الى الناسك مارون ، وخاصة ان التاريخ الديني ، يذكر أسماء قديسين عديدين ، حملوا اسم مارون ، مثلما عرفت أديار عدة بهذا الاسم نفسه(١) .

وفي كل الاحوال ، لا تعني تسمية دير ما تيمّناً بشفاعة قديس معيّن ، أن لهذا القديس بالضرورة دوراً في تأسيسه . هناك أديار كثيرة حملت أسماء قديسين لا صلة لها بهم ، فضلاً عن غياب اي دليل تاريخي على علاقة دير مار مارون ، على العاصي ، بمارون الناسك او بتلاميذه النسّاك ، ولا سيما ان الدير بني للرهبان ، حيث ضمّ المئات منهم ، بينما زهد مار مارون وتلاميذه من النساك عن هذه الدنيا ، وانقطعوا عن العالم للتعبد . فلا صلة من تنظيم اطلاقاً ، ولا من علاقة دينية مباشرة ، بين الناسك مارون والدير .

المؤرخ ابو الفداء يؤكد ان الدير بناه الامبراطور البيزنطي مرقيانس (٤٥١-٤٥٧)(٢) . بينما يقول الأب لامنس استناداً على ما كتبه تيودوريتس : «ان جمهور الرهبان الذين أتوا من القورسية الى بلاد أفاميا لينشئوا فيها الأديار ، كانوا تلامذة للقديس الناسك مارقيان وليس تلامذة القديس مارون ، لأن تيودوريتس أفادنا انه لم

---

(١) يعرض البطريرك اسطفان الدويهي اسماء الاماكن والناس الذين حملوا اسم مارون وذلك في الفصل الثاني من كتابه عن «أصل الموارنة» والذي نشره الأب المطران ضو العام ١٩٧٣ .

(٢) ابو الفدا ، المختصر في تاريخ البشر ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٨١ .

يخرج أحد من رهبان القديس مارون من بلاد قورس . ولا يبعد ان تلاميذ مارقيان ، واصلهم من قورس ، دعوا احد الاديرة التي شيدوها في بلاد أفاميا ، باسم القديس مارون لإكرامه . . . ومارقيان الالهي هو الذي أنشأ كل أديرة بلاد أفاميا . فلا يمكن اذن ان ينسب إنشاء أحد هذه الاديرة لتلامذة القديس مارون»(١) .

لم ينشئ مار مارون وتلاميذه اي تيار ديني خاص ، تولدت منه رهبنة او طائفة ، بشهادة أبي الفداء والأب لامنس ، اللذين ينفيان اي علاقة لمارون او تلاميذه ، ببناء دير مار مارون على العاصي . وإنما اقتصر دور مار مارون وتلاميذه ، على التنسك وحياة الزهد والتقشف ، حسبما قال تيودوريتس .

مع ذلك ، يبقى السؤال مطروحاً ، هل مار مارون هو أبو الطائفة المارونية؟ وهل المارونية تنتسب الى مارون الناسك؟ وكيف أقيمت هذه العلاقة المزعومة بين الموارنة والناسك مارون؟

أصل الموارنة وكنيتهم

المؤرخ كوارميموس ، الخبير في علم اللاهوت والتاريخ ، يقول : «أما الموارنة فلا يتفق المؤرخون بشأنهم»(٢) .

---

(١) تسريح الانصار ، الاب لامنس ، ج٢ ، ص ٨٩ .

(٢) هو راهب فرنسيسي عمل في اللجنة الرسولية المقيمة في الاراضي المقدسة . طبع كتابه عن الطوائف الشرقية سنة ١٦٣٩ وخص الموارنة بأربعة فصول ، ص ٩٤-١٤١ .

يكاد لا يجمع مؤرّخان على الرأي نفسه ، حول أصل الموارنة ونسبتهم ، ولا حول تسميتهم او كنيتهم ، لا بل تتباين آراء مؤرّخي الموارنة وتتناقض ، بحيث خصص البطريرك اسطفان الدويهي الفصل الأول من كتابه عن أصل الموارنة [١] ، لعرض آراء مختلف العلماء في هذا الصدد . وسننقل ، باختصار ، ما ورد في هذا الفصل ، مركّزين على آراء المؤرخين الموارنة القدامى الأسبقين :

يعود أصل الموارنة ، بحسب سعيد بن بطريق ، الى مارون الراهب الذي قال إن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة ، وهو الرأي المخالف للعقيدة الكاثوليكية . لكن قوماً من الموارنة تبعوا مارون الراهب ، على ما يقول الدويهي ، مثل عبدالله ابن الطيب الذي كان قسيساً في العراق ومات سنة ١٠٤٣ ، ومثل توما مطران كفرطاب الذي توفي في أوائل القرن الثاني عشر ، وهما ممّن قالوا بنسبة المارونية الى دير ماران .

كذلك ، يرد في كتاب «الهدى» الماروني ، وفق نسخة مسعود الشبطيني العائدة الى سنة ١٣٤٥ ، ان «المارونية هي المنسوبة الى دير ماران» ، بينما جاء في نسخة الكتاب نفسه ، والتي حققها الأب بطرس فهد ، ان الموارنة إنما ينتسبون الى البطريرك يوحنا [٢] .

(١) «أصل الموارنة» ، المرجع السابق ، ص ٥٥-٥٩ و١٥٥-١٥٨ . .

(٢) كتاب الهدى ، تحقيق الأب بطرس فهد ، حلب ١٩٣٥ ، ص ٣٧ .

يقول ابو الفضل عبدالله نفسه ، ان الموارنة سمّوا مرانيين ، اي ربّانيين ، لتمسكهم بالديانة الصحيحة . ويذكر الدويهي ، ان جبرائيل القلاعي وغيره ، شاركوا أبا الفضل هذا الرأي .

يقول الكاردينال بارونيوس الايطالي (١٥٣٨ - ١٦٠٧) ، إن الموارنة استمدوا اسمهم من مارون ، المدينة التي بقرب أنطاكيا ، أو من مارون القديس ورئيس الدير . وهو رأي وافق عليه ، بحسب الدويهي ، كل من جبرايل الصهيوني ومرهج ابن نمرون وغيرهما .

يقول جبرائيل ابن القلاعي المتوفى سنة ١٥١٦ ، إن الموارنة استمدوا كنيتهم من البار مارون ، بطريرك انطاكيا .

في كتابه «أصل الموارنة» ، يعرض البطريرك الدويهي آراء العلماء في اصل الموارنة ، ثم يذكر اسماء القرى والمدن والاشخاص الذين عرفوا باسم مارون ، حتى يقول : «ان الموارنة اشتقوا من مارون آخر غير الذين تقدم ذكرهم» . ويبدأ فصلاً جديداً عن حياة مارون الناسك ، لكنه يعود في الفصل السابع فيقول : «على اسم الدير تسمت المارونية» [١] .

على ان هذه البلبلة في تحديد أصل الموارنة ، ما تزال مستمرة

---

(١) «اصل الموارنة» ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

بين مؤرّخي الطائفة المارونية ، حتى يومنا [١] .

فإلى من نستطيع إذاً أن ننسب «المارونية»؟ الى الناسك مارون؟ الى راهب آخر اسمه مارون ، وكان صاحب بدعة؟ الى البطريرك يوحنا مارون؟ الى دير مار مارون؟ الى مدينة مارونيا في بلاد صراكية والتي شاع ذكر أهلها باسم موارنة [٢] أم تشتق التسمية من كلمة «ربانيون»؟

يتضح ، اولاً ، من العرض الذي قدمه الدويهي ، أن الموارنة القدامى (ابن القلاعي ، توما الكفرطابي ، وغيرهما . . .) ، لم ينسبوا ابداً الطائفة المارونية الى مارون الناسك ، وأما اول من اعتبر أن اسم الموارنة مأخوذ من مار مارون ، فهو مرهج بن نيرون أحد خريجي المدرسة المارونية في روما ، في سياق كتاب طبعه سنة ١٦٧٩ في روما ، وتناول فيه اسم الموارنة وأصلهم ودينهم ، في حين انه سبق ان تقدم برأي آخر حول اصل الموارنة ، ناسباً إياهم الى مدينة ماران السورية .

---

(١) (٢٤) في مجلة الفصول عدد ٤ ، فؤاد افرام البستاني اعتبر القديس مارون أب الطائفة المارونية بينما جواد بولس أكّد أنّ دير مار مارون هو الذي أعطى اسمه للشعب الماروني . وفي تاريخه عن الكنيسة المارونية ، يرى المطران ديب أن الدير أعطى الموارنة تسميتهم بينما يجزم آخرون على أن التسمية مستمدة من مارون الناسك .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

والبطريرك اسطفان الدويهي نفسه ، الذي انتخب بطريركاً في العام ١٦٧٠ ، نسب الطائفة المارونية احياناً الى مارون الناسك ، واحياناً اخرى الى دير مار مارون ، كما رأينا .

لكن نسبة المارونية الى مارون الناسك وحده ، انما هو طرح كرّسه مرهج بن نيرون وغيره ، من طلاب المدرسة المارونية في روما . وذلك يدفعنا الى استنتاج ، مفاده أن ما من احد قال جازماً بأن المارونية تعود في أصلها الى مارون الناسك ، قبل القرن السابع عشر . غير ان لهذا الادعاء سبباً تمثّل في ما عاناه طلاب المدرسة المارونية في روما ، من مشاكل جمّة في الدفاع عن كاثوليكية طائفتهم ، وفي رفض الاتهامات التي وجّهت اليهم بأنهم من أصحاب البدع . كذلك توسّل هؤلاء الطلاب هذا الادعاء للتدليل على كاثوليكيتهم ، حيث ان روما تعترف بقداسة الناسك مارون ، فلا تعتبره بالتالي خارجاً على تعاليمها . في هذا السياق ، يجدر أن نذكر ان الكاردينال بارونيوس الايطالي هو اول من ربط المارونية بالناسك مارون ، في كتاب عن التاريخ الكنسي ، طبع في روما في اوائل القرن السابع عشر [١] . ولا تخفى مساهمة هذا الكاردينال مع الفاتيكان ، في استيعاب الكنيسة المارونية ، التي ظلت قروناً

(١) «التاريخ البيعي» المؤلف من ١٢ مجلداً وفي ص ٧٦٥ من المجلد الأخير يقول : «اما هؤلاء الموارنة فيزعمون أنهم اتخذوا اسمهم من مدينة تدعى مارونيا في سوريا ، او من مارون القديس ورئيس الدير . . .» .

طويلة خارجة على طاعة الباباوات . على اننا سنستعرض لاحقاً العلاقة بين الموارنة وروما ، ومحاولات الفاتيكان ليتنة الكنيسة المارونية .

دير مار مارون

ينسب بعض المؤرخين المارونية الى دير مار مارون على العاصي ، ما جعل هذا الدير محطة أساسية ، هي المحطة الثانية التي يتوقف عندها مؤرّخو الطائفة المارونية ، بعد مسألة مارون الناسك . فما هو هذا الدير؟ وما كان دوره او دور رهبانه؟

لقد تباينت الآراء حول تحديد مكان الدير ، قال بعضها انه وجد في سوريا الاولى ، والبعض في سوريا الثانية ، والبعض الآخر في فينيقية اللبنانية [١] . يقول فؤاد افرام البستاني : «فكان الدير يتنقّل ، من ثم ، في آراء المؤرخين ، من ضواحي حمص حتى جوار انطاكيا ، وبينهما مسيرة ثمانية أيام» [٢] . والحق انه لا يمكن تاريخياً الجزم بتحديد هوية من بناه ، ولا السنة التي شيّد فيها ، ولا هوية من

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذا الدير راجع :
- تاريخ الموارنة ، الأب بطرس ضو ، ج١ ، ص ١٤٥-١٦٣ .
- التنبيه والاشراف ، المسعودي ، ص ١٥٣-١٥٤ .
- لباب البراهين الجلية ، المطران يوسف دريان ، ص ٢٦ .
- تاريخ الكنيسة المارونية ، المطران بطرس ديب ، ج١ ، ص ٥ .

(٢) مار مارون ، فؤاد افرام البستاني ، ص ٤٨ .

دمره ، ولا من أعاد ترميمه . ويعود هذا الالتباس الى فقدان المعلومات القديمة الموثوق بها والى وجود اكثر من دير يحمل اسم مارون .

من الحقائق التاريخية ان دير مار مارون في سوريا الثانية ، قد قام بدور بارز في أوائل القرن السادس ، على أثر المجزرة التي تعرّض لها الرهبان الخلقيدونيون سنة ٥١٧ ، وذهب ضحيتها ٣٥٠ راهباً . فان أنصار الرهبان وجّهوا سبع رسائل احتجاج او عرائض شكوى الى المراجع الدينية والمدنية . نشر الاب بطرس ضو هذه الرسائل والعرائض ، في الفصل الثالث من تاريخه عن الموارنة .

يقول فؤاد افرام البستاني عن دير مار مارون : «إلاّ ان حوادث الشغب والفتن تؤثر فيه ، بعد وقوع القسم الكبير من رهبانه في كمين اليعاقبة سنة ٥١٧ ، وهم في طريقهم الى دير سمعان العمودي ، الواقع في جبل سمعان ، غربي حلب ، فيقتل منهم ٣٥٠ دفعة واحدة» [١] .

ذهب قسم من المؤرخين الموارنة مذهب البستاني ، وتناقلوا هذه المعلومات كمسلّمة دون أي مراجعة تاريخية دقيقة . حتى ان الكنيسة المارونية تقيم عيداً لهؤلاء الرهبان ، في ٣١ تموز من كل عام ، باعتبارهم شهداء لها [٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) مجلة الفصول ، عدد ٣ ، مقالة «المارونية رسالة تحرير مشرقية» ص ٤٢ .

على أن الرسائل التي رفعها انصار الرهبان الضحايا الى بعض المراجع ، كفيلة بأن توضح لنا هوية الرهبان ، والفئة التي نفّذت الجريمة .

ففي سنة ٥١٢ ، طرد الملك البيزنطي إنستاس (٤٩١ - ٥١٨) ، البطريرك الانطاكي فلابيانس ، وأقام ساويروس بطريركاً مكانه . ولم يكن الملك إنستاس ليخفي «ميله الى القول بالطبيعة الواحدة . . . وكلما زاد سنّاً ازداد تعلقا بالطبيعة الواحدة . . . فأدى تشبثه بها الى اضطرابات متتالية في العاصمة وفي الاسكندرية وأنطاكية» [١] .

احتدم الخلاف بين الفريق القائل بالطبيعة الواحدة ، يدعمه الملك إنستاس والبطريرك ساويروس وأنصارهما ، والفريق المؤيّد للمجمع الخلقيدوني ، القائل بوجود طبيعتين في المسيح ، ومن بينه رهبان دير مار مارون . ذلك ما ادى « . . . الى اصطدامات عدة ودموية بين الفريقين ، كان من ابرزها مجزرة الثلاثمئة والخمسين راهباً من رهبان دير مار مارون والأديار التابعة له في سوريا الثانية» [٢] . والرسالة الموجهة من إكليروس سوريا الثانية الى البابا هورميزدا تصف صراحة المجزرة وتوجه الاتهام الى الملك ، وقد جاء فيها :

(١) تاريخ الروم ، أسد رستم ، ج١ ، ص ١٣٤-١٣٨ .
(٢) تاريخ الموارنة ، الأب بطرس ضو ، ج١ ، ص ١٦٤ .

«كمنَ لنا في الطريق الاشرار . . . ووثبوا علينا وقتلوا منا ثلاثمائة وخمسين رجلاً واثخنوا الكثيرين بالجراح . والذين لجأوا الى حرمة المذابح لاقوا حتفهم قتلاً هناك . أحرقوا الأديار حيث أرسلوا ليلاً شرذمة من الرجال الاشرار المشترين بالمال الذين نهبوا كل ما يخصّ الكنائس . وستقفون على التفاصيل بواسطة الوثائق التي يحملها الى طوباويتكم أخوانا الموقران يوحنا وسركيس اللذان ارسلناهما الى القسطنطينية للتظلّم من هذه الشرور . ولكن الملك لم يتكرّم عليهما ولا بكلمة ، لا بل طردهما بفظاظة شديدة متوعّداً الذين دفعوهما الى ذلك . إذ ذاك علمنا ان سفاهة هذا قدرها وإقداماً الى هذا الحد على الإيقاع بالكنائس ، ما كانا ليحصلا لو لا أمر الملك» [١] .

تحدّد الرسائل الاخرى ، التي رفعها الرهبان حول المجزرة ، هوية هؤلاء «الاشرار» الذين نفّذوا الجريمة البشعة ، فإذا هم من «اليهود» ، كما تقول صراحة عريضة رهبان أفاميا « . . . انقضّوا علينا من أماكن مرتفعة ووعرة . ماذا كان بإمكاننا أن نصنع ، كيف كان باستطاعتنا أن نقاوم فظاظة هؤلاء المهاجمين وفظاعة بطش زعيم الكفر؟ هكذا قتلوا بعضاً واستاقوا بعضاً أسرى ، وعروا بعضاً من ثيابهم ، واقتادوا بعضاً أمام الملأ بثياب غير لائقة . . .» [٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

كذلك تؤكد «رسالة رهبان ابرشية انطاكية الى يوحنا البطريرك القسطنطيني» على دور اليهود في تنفيذ المجزرة : «وليس من يجهل لا نحن ولا غيرنا ، كم قتل من الرهبان القديسين ، مستخدماً لذلك الأيدي اليهودية . قاسياً للغاية كان مشهد ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين رجلاً من سوريا الثانية . . . منطرحين عراة بدون دفن تنهشهم الكلاب والطيور . . .» [١] .

«جمع هؤلاء شرذمة من اللصوص اليهود المجرمين ، وأطلقوهم على الرجال الأبرار» [٢] . وأيضاً ، «الرسالة التي رفعها الى البطريرك القسطنطيني رهبان القسطنطينية ، ورهبان اورشليم وفلسطين وسيناء ، ورهبان بلاد العرب وسوريا» ، تؤكد على أن اليهود هم الذين ارتكبوا المجزرة ضد الرهبان .

توضح رسالة اخرى الهوية العقائدية اللاهوتية الفعلية لأرباب المجزرة ، فتعيّنهم بالاسم قائلة إنهم «اللارأسيون» ، وهم «بدعة متفرعة من المونوفيزية ، وأكبر ابطالها ساويروس الانطاكي وبطرس الأفامي وزوعارا» [٣] .

ولكن ، هل من دور لليعاقبة في ارتكاب المجزرة ، من حيث يحق للبستاني وغيره باتهامهم؟

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٨ . .

الواقع أنه «لم يكن لليعاقبة بعد أي وجود يذكر في سنة ٥١٧»[١] . فاليعاقبة ، وإن كانوا من الفرق المونوفيزية ، فانهم ظهروا على الساحة الدينية بفضل مؤسسهم يعقوب البرادعي ، الذي «وصل الى القسطنطينية سنة ٥٢٨»[٢] ، وصار اسقفاً ، كما هو محتمل ، في خلال الفترة بين ٥٤٣ - ٥٧٨[٣] .

فلا هدف من إلصاق تهمة ارتكاب «المجزرة المارونية» باليعاقبة ، غير تعميق الشرخ والتناقض بين الموارنة والطوائف الشرقية الأخرى ، تسهيلاً من البعض لربط المارونية بالغرب وليتنتها ، بينما المسؤولية الفعلية يتحملها الملك البيزنطي وأنصاره ، واليهود منفّذو الجريمة .

لكن لا بد من الكلام على هؤلاء الرهبان الثلاثمئة والخمسين . فمن هم؟ وهل هم جميعاً موارنة؟ وهل وجد موارنة في ذلك الوقت؟

يقول جواد بولس : «في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي ، برز الى الوجود على ضفاف نهر العاصي في سوريا

---

(١) لبنان ، فؤاد قازان ، ص ١٣٢ .
(٢) انطاكيا مدينة الله ، أسد رستم ، ج١ ، ص ٣٧٧ .
(٣) تاريخ الشرق الادنى ، فيليب حتي ، ص ٣١٧ . الشرح المختصر ، الاباتي بطرس فهد ، ص١٦ .

الشمالية ، أول كنيسة مارونية مستقلة وأول مجتمع ماروني منظم»[١] . فلا يكفي أبداً وجود دير ما على اسم مارون ، للقول بوجود كنيسة مارونية مستقلة . فان ذلك ما يؤكده الأب بطرس ضو ، من جهة اخرى ، حيث يقول : «لم يكن الموارنة قبل أواخر الجيل السابع يؤلفون كنيسة مستقلة . . . ليس من الأكيد ان لفظة موارنة شاع استعمالها قبل القرن الثامن»[٢] .

نستنتج أن الرهبان الضحايا لم يكونوا موارنة ، لأن المجزرة التي تعرّضوا لها ، وقعت في عصر لا وجود للمارونية فيه : «إن استشهاد هؤلاء الرهبان حصل قبل انقسام الكنيسة الخلقيدونية الأنطاكية الى فرعين مستقلّين : المارونية والروم»[٣] . هذا الانقسام حصل بين المسيحيين فعلياً سنة ٧٢٧ . ثم إن الأب ضو يقول من جهة اخرى : «والثلاثمئة والخمسون شهيداً لم يكونوا من دير مار مارون وحده ، ولكن من عدة أديار»[٤] . كذلك نستدلّ من رسائل الاحتجاج ، أن الضحايا الرهبان كانوا من الخلقيدونيين . أمّا دير مار مارون نفسه ، إنّما هو أحد الأديار الخلقيدونية ، الذي قام رهبانه بدور كبير في حركة الاحتجاج ضد المجزرة .

---

(١) الفصول ، عدد ٣ ، ص ١٦ .
(٢) الأب ضو ، المرجع السابق ، ص ١٣-١٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٧١ .
(٤) المرجُع السابق ، ص ١٨١ .

تضخيم واقع المجزرة وحصر ضحاياها بالموارنة ، وحدهم ، في وقت لم تكن فيه الطائفة المارونية نشأت بعد ، إنّما هدف الى تعميق شعور الاضطهاد في اللاوعي التاريخي عند الموارنة ، لإظهارهم فئة مظلومة معرّضة دائماً للتنكيل والاضطهاد وفريسة للمجازر ، وضحية دائمة تحتاج الى حماية ودعم . ولا يخفى كم ساعد ذلك على اغتراب الكثيرين من الموارنة عن واقع الشرق ومصيره ، وعلى تسهيل توجّههم الى الغرب استجداء للعون والحماية .

المارونية كنيسة وطنية

ظهر الموارنة ، بما هم كنيسة مستقلة ، في أوائل القرن الثامن للميلاد ، حيث ان المارونية نفسها ، بحسب الأب بطرس ضو ، إنما نشأت من رحم التيار الاستقلالي الذي برز في سوريا آنذاك ، داعياً الى التحرر الوطني من النفوذ السياسي البيزنطي ، ورافضاً تدخل البلاط في شؤون العقيدة الدينية والادارة الكنسية . ثم انه تيار استقلالي استند الى نزعة «نابعة من صميم الشعور الوطني الآرامي المتحرر من سلطان القواعد الاغريقية الرومية» . وتأسس هذا الشعور على واقع الانتماء الى الحضارة السريانية الآرامية ، بما هي معبرة عن «العنفوان الوطني لدى الشعب السوري الآرامي» . كذلك جسدت هذه النزعة «يقظة الحس القومي المكبوت منذ زمن

طويل» ، انطلاقاً من «نهضة وطنية سورية مستقلة عن النفوذ البيزنطي» ، مستقلة ، لأنها نبعت من «مؤثرات شرقية ، أي آتية من ما وراء الفرات ، لأن مراكز الحضارة الآرامية السريانية كانت مزدهرة في ما وراء الفرات ، حيث لم يصل التسلط الروماني والبيزنطي أو حيث كان نفوذه خفيفاً» .

ولعب الرهبان دوراً هاماً في تكوين هذه الحركة الاستقلالية ورعايتها وتقويتها ، «وهذه الحركة الاستقلالية بمختلف مظاهرها ، مهّدت لاستقلال الكنيسة المارونية وأدّت إليه» (١) .

فالتناقض الماروني - البيزنطي ، الذي برز كخلاف ديني ، لم يكن سببه إذاً ، تباين وجهات النظر حول مسائل لاهوتية ماورائية فحسب ، بل إنه يضرب في الأعماق والجذور ، ليشمل النواحي الاجتماعية والحضارية والكنسية والسياسية .

اجتماعياً : انطوى التيار الاستقلالي الماروني على مضمون اجتماعي ، تمثّل بوجود فوارق إتنية وطبقية ، وفوارق حضارية واضحة المعالم بإزاء السيطرة البيزنطية .

يقول الأب بطرس ضو : «كان الشعب السوري الاصيل ، ومعظمه في الجبال والأرياف والسهول ، لا يزال وثنياً . وكان هذا

(١) تاريخ الموارنة ، الأب بطرس ضو ، ج ١ ، ص ٤٢-٤٥ .

الشعب يؤلّف الأكثرية الساحقة من مجموع أهالي سوريا» . لكن مع هداية هذا الشعب الى المسيحية ، طرأ تبديل ديموغرافي كبير داخل الكنيسة الانطاكية ، ما دفع الى «تحول مجرى الأمور من الاتجاه اليوناني الى الاتجاه السوري الآرامي الوطني ، لأن مسيحيي سوريا اصبحوا بأكثريتهم الساحقة آراميين وطنيين ، لغة وفناً وحضارة وطقساً . أضف الى ذلك الحماسة التي دبت في الصدور ، من جراء أن المسيح سوري من فلسطين وآراميّ لغة»[١] .

هذا التحول الديموغرافي الإتني ، أدى الى تناقض قومي عميق بين الشعب السوري الآرامي من جهة والبيزنطيين من جهة أخرى . الى ذلك ، فالموارنة هم جزء من الشعب السوري السرياني الآرامي ، «من المعلوم ان مار مارون سوري سرياني الأصل . . . لفظة سرياني بالأصل نسبة الى سوريا ، وسوريا هي البلاد الممتدة من الفرات الى البحر ، ومن جبال طوروس الى فلسطين . . . ودعي سكان سوريا بمفهومها المشار اليه تارة سوريين وسرياناً وطوراً آراميين . ولفظة سوريين وسريان كانت المفضلة لدى اليونان والاوروبيين بينما لفظة آراميين هي المفضلة في الكتاب المقدس وعلى الصعيد المحلي . فآراميون وسريان او سوريون هي

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

اسماء مختلفة لمسمى واحد هو شعب سوريا بمفهومها الجغرافي السابق الذكر»[١] .

غير ان الدكتور كمال الصليبي ، يؤكد ان الموارنة هم ، عرقياً ، من «نبط الشام ، ومن أقحاح العرب» ، ومن الأكيد ان الموارنة كانوا يتكلمون العربية ويكتبون بها وليس بغيرها ، على الاقل ابتداء من القرن الميلادي التاسع[٢] .

أما المطران يوسف الدبس فيقول : «فما الموارنة إلا جماعة من السريان السوريين دانوا بالدين المسيحي»[٣] .

من الناحية الطبقية ، كانت الفوارق واضحة ، حيث سكن الموارنة الأرياف ، باعتبار أنهم من الرعاة والفلاحين[٤] ومن «طبقة الفلاحين الصغار مالكي اراضيهم الفعليين . وكانت تؤلف هذه الطبقة في المجتمع القروي العنصر الأهم عدداً وعملاً . وبعبارة أخرى نحن أمام شعب زراعي فقط يستثمر أرضه بذاته»[٥] .

كانت أغلبية الموارنة تسكن في الجبال والأرياف ، بينما أغلبية الروم تتواجد في المدن ، كما يتضح من تاريخ التلمحري وميخائيل

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩٢ .
(٢) منطلق تاريخ لبنان ، كمال الصليبي ، ص ٣٩ .
(٣) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل ، المطران يوسف الدبس ، ص ٣ .
(٤) الصليبي ، المرجع السابق ، ص ٣٧ .
(٥) ضو ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ . وتشلنكو ، مرجع سابق ، ص ٤١٧ .

السوري «أن الروم في الارياف لم يكونوا إلا قلة ضئيلة»[١] . فما كان للكنيسة الأنطاكية ، أن تنقسم بين موارنة وملكيين مرتبطين بملك الروم ، لولا «الفوارق الاجتماعية العميقة» ، من حيث إنها « . . . من العوامل الأساسية التي نشأت على أثرها الخلافات بين الموارنة والكنيسة الملكية الرسمية»[٢] . والحال ان الموارنة الفلاحين والرعاة والريفيين ، قابلهم القيّمون على الكرسي الانطاكي ، بأغلبيتهم المؤلّفة من أعيان المدن وأثريائها المرتبطين بالبلاط الملكي البيزنطي ، ومن الروم الذين يقطنون الديار الشامية ، على ان جميع هؤلاء يجيدون البيزنطية ، لغة الحكم .

إنما يجب التمييز بين الفئات الطبقية المهيمنة على الكرسي الأنطاكي ، والمرتبطة بالحكم البيزنطي ، والشعب التابع للكنيسة الملكية ، أي الروم ، حيث ان «السريان والموارنة والملكيين ، (الأرثوذكس والكاثوليك) ، هم شعب واحد»[٣] .

حضارياً : نشأت المارونية شمالي سوريا ، في منطقة عرفت حضارة وطنية عريقة ، تغلب عليها « . . .الطابع السرياني الآرامي الشرقي» . ويصفها الأب ضو استنادا الى دراسات علماء

(١) ضو ، المرجع السابق ، ص ٢٣١-٢٣٥ .
(٢) الصليبي ، المرجع السابق ، ص ٣٩ .
(٣) نقلاً عن كارالوفسكي مؤرخ الكنيسة الانطاكية الملكية ، ضو ، المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

ومؤرخين مشهورين ، قائلاً : «برزت في الكنيسة الأنطاكية الحضارة السورية الوطنية بإزاء الحضارة البيزنطية اليونانية ، واشتد التنافس بينهما . وتكوّن لدى السوريين الأصليين ، ميل الى تأكيد وإبراز حضارتهم السورية الآرامية ، والانعتاق من النفوذ البيزنطي اليوناني ، في الفن واللغة والطقوس ، وسائر عناصر الحضارة . هذا ما يؤكده كل الاختصاصيين في تاريخ سوريا وحضارتها ، وفي طليعتهم دي فوغة ولامنس وماترن ولاسوس وديل ، وغيرهم من الإفرنسيين ، وبطلر من الأميركيين ، وشالنكو من الروس» [١] .

رافقت هذه الحالة الاستقلالية الحضارية ، رغبة عارمة في الاستقلال عن بيزنطية ، سواء في ادارة الكنيسة وشؤونها أو في الأمور السياسية واللاهوتية . يقول المؤرخ الفرنسي ديل Charles Diehl : «هذا الانقسام بين مسيحييّ سوريا ، يدلّ عليه ظهور وتكاثر سريع في الكتابات السريانية في القرن السادس . وتدلّ على اهتمام المونوفيزيين للاتصال بالشعب السوري عن طريقة لغة العبادة ذاتها ، ولاستخدام الميول الاستقلالية السياسية في دعوتهم ، كما فعل الأقباط . هذا التراجع الهليني هو علامة مسبقة للانحلال البيزنطي . وينمّ عن رفض للحكم الملكي . فقد مهدت

---

(١) ضو ، المرجع السابق ، ٣٢٤ .

شـدة وطأة يوسـتنيـانوس وخلفـائـه في الضـرائب ، وفي الشـؤون اللاهوتية ، لإعداد النفوس لقبول وتمنّي احتلال منقذ»[١] .

ذلك ما حـصل ، بالفعل ، حين رحّب المسيـحيون في سـوريا بالفـتح العـربي الإسـلامي ، فـرأوا فـيـه محـرراً لهم من الطغيـان البيزنطي .

كنسياً : فوق ذلك ، اضطلعت الكنيسة الأنطاكية بدور كبير ، ضمن هذا الاتجاه الاستقلالي بإزاء بيزنطية ، ما ساعد على التمسك بتـراثهـا والمحـافظة على تقـاليـدها ، « منذ عـهـد الرسل اصبـحت انطاكية كرسي البطريركية في سوريا والمشـرق كله»[٢] . وهذا ما يؤكـده أيضـاً العـلامـة هنريكس : « . . . زاد تدخل الرهبـان في شؤون كنيستـهم الانطاكية بقـصد انشـاء كنيسة سورية مستقلة عن بيزنطية»[٣] .

أنطاكية او «مدينة الله» ، كمـا يعني اسمـهـا ، وعاصمة التيـار الاستقلالي ، إنها المدينة التي حضنت ، عبر تاريخها كله ، الكثير من أهمّ الحركات الاستقلالية . نكتفي بذكر أهمّ المحطات التاريخية لهذه المدينة ، وهي التالية :

---

(١) Le Monde Oriental de 395-1081, Paris 1944, P243.

(٢) ضو ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦ .

(٣) Henricks, Proche Orient Chretien, 1958, P25.

أ ـ في منتصف سنة ٢٧١ ، أعلنت زنوبيا ، ملكة تدمر ، استقلال مملكتها عن روما . على أنّ زنوبيا كانت تدعم بولس السميساطي في أسقفية أنطاكية ، مثلما أيّدها السميساطي بدوره ، وتعاون معها . ثم كان أن أنشأ السميساطي حزباً حوله ، ضمّ عددا من أساقفة الريف والكهنة والشمامسة ، فانشقّت الكنيسة الأنطاكية الى معسكرين : معسكر الوطنيين الشرقيين ، السريانيين والعرب من بدو وساسانيين ، ومعسكر الرومانيين والمتهلّنين .

أما اليهود بأكثريتهم ، فقد آثروا مناصرة روما على الدول العربية . لكنّ الوطنيين الشرقيين ، وجدوا في زنوبيا العربية الزعيمة الوطنية ، التي تحاول التحرر من حكم روما والغرب . كذلك عرف بولس السميساطي بمقاومته لكل من أيّد روما والحضارة اليونانية ـ الرومانية . وبالمقابل ، حصل السميساطي على تأييد المجمع الأنطاكي الثاني ، الذي انعقد سنة ٢٦٤ ، مثلما أيّده جميع أعداء روما .

اعلنت زنوبيا الحرب على روما ، وتقدمت جيوشها حتى وصلت الى خلقيدونية ، مفتاح البوسفور . لكن أوريليانوس الامبراطور الروماني ، شنّ عليها حملة ، في صيف ٢٧١ ، انتهت الى أسرها والى قتل العالم لونجينوس الحمصي ، الذي استقدمته زنوبيا من أثينا ليدافع عن حركتها التحررية . استشهد لونجينوس

في حمص ، حيث تقبّل الموت بشجاعة بارزة[١] .

يتطرّق الأب ضو الى الكلام على بولس السميساطي ، حيث يصفه بقوله : «كان ذا ميول وطنية . وقد تحالف مع القوى الوطنية في زمانه ، ضد التسلط الاجنبي الممثل آنذاك بالحكم الروماني»[٢] .

ب ـ حوالى سنة ٣٣٠ ، اتخذ أساقفة أنطاكية قرارات عدة ، هدفت الى وضع حدّ لتدخّل الدولة في شؤون الكنيسة . كذلك اعتبرت هذه المبادرة بمثابة الخطوة الرسمية الأولى نحو استقلال الكنيسة .

سنة ٣٤٣ ، اجتمع الآباء الشرقيون ، بعدما قاطعوا يوليوس أسقف روما ، وأقرّوا دستور الإيمان الأنطاكي[٣] . وهذا ما أدى الى «انقسام الكنيسة الأنطاكية الذي ابتدأ سنة ٣٣٠ ودام أكثر من مئة سنة»[٤] .

ج ـ سنة ٣٧٢ ، أتى الملك فالنس الى انطاكيا لطرد النيقاويين من كنائسهم . والنيقاويّون هم أنصار المجمع النيقاوي الذي يعارضه

(١) مدينة الله ، أسد رستم ، ص ١٢٠-١٢٩ .
(٢) ضو ، ج٢ ، ص ٦٥ .
(٣) مدينة الله ، أسد رستم ، الفصل ١٧ .
(٤) ضو ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢٧ .

الامبراطور . فاختبأوا في مغاور الجبال القريبة ، لكن الملك أرسل جيشاً يطاردهم في ملاجئهم ، وأغرق جمهوراً كبيراً منهم في العاصي[1] .

د ـ سنة ٣٨٧ ، ثار أهالي انطاكيا على الامبراطور توادوسيوس ، بسبب زيادة الضرائب . وأخذ الثائرون يجدّفون على الملك وأسرته وحطّموا تماثيله وتماثيل الملكة ، ممرّغين إيّاها في الأوحال والأقذار . لكن الثورة قمعت ، وجلس القضاة ، خمسة أيام متتالية ، يصدرون الاحكام بالعذاب والسجن والاعدام ، وبمصادرة الاموال والممتلكات ، بحق الكثيرين من الأبرياء[2] .

فاستناداً الى هذا التراث التحرري الذي عرفته انطاكيا ، تمسّك اصحاب الاتجاه الاستقلالي «ببقاء الكنيسة الانطاكية على الوضع الذي كانت عليه ، طوال الثلاثمئة سنة . . . بالتسيير الذاتي واستقلال الكنيسة عن السلطة الملكية . . . واعتبر أصحاب هذا الاتجاه تدخل البلاط الملكي والكنيسة البيزنطية في شؤون الكنيسة والبطريركية الانطاكية أمراً مستحدثاً ومخالفاً للتقاليد الرسولية والدساتير الأصلية وخارجاً على نطاق الشرعية»[1] .

---

(١) ضو ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ٣٠ .
(٢) ضو ، المرجع السابق ، ص ٢٦-٢٧ .
(٣) ضو ، المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .

وهنالك عوامل واسباب عديدة ، لغوية وطقسية وحضارية وروحية واجتماعية ، هي التي أسست لهذا التيار الاستقلالي ، الذي أدّى الى قيام الكنيسة المارونية ، «فالاستقلال الوطني السوري أمنية تاق اليها الشعب منذ أمد طويل . . . برزت لأول مرة في الانفصال اليعقوبي ، ثم ما زالت تتطور . . حتى سنحت لها الفرصة المؤاتية ، بعد زوال الحكم البيزنطي عن سوريا» [١] . فما المارونية غير جزء من التيار الاستقلالي الوطني السوري ، هذا التيار الذي اتخذ أشكالاً مختلفة ، منها الكنيسة اليعقوبية وسائر الكنائس الشرقية السريانية ، التي تشدّها روابط وطنية شعبية عميقة الجذور بالكنيسة المارونية ، ولئن تميزت عنها بنواح لاهوتية جزئية .

أزالت الجيوش العربية الاسلامية المنتصرة ، كابوس الاضطهاد الذي مارسه الحكم البيزنطي ، ضدّ الجماعات التي خالفته الرأي ، حيث نكّل باليعاقبة والموارنة أكثر من مرة . عندئذ ، تمكن الموارنة من إعلان استقلال كنيستهم عن بيزنطية ، بعدما فقدت هيمنتها العسكرية . ذلك ما يؤكد أنّ الموارنة ، رحّبوا ، مثل غيرهم من الفئات المسيحية ، بالفاتحين العرب المسلمين ، أو هم على الاقل ، استفادوا من هذا الفتح ، للتخلص من الظلم الذي مارسه الأباطرة

(١) ضو ، المرجع السابق ، ص ٣٤٠ .

المسيحيون [١] . وفي هذا الصدد ، يقول فؤاد قازان : «وجاهر أكثر السوريين المسيحيين ، بتفضيلهم المسلمين على الأباطرة المسيحيين ، مثل اليعاقبة المعتنقين الطبيعة الواحدة ، والمونوفيزيين المعتنقين الطبيعتين والمشيئة الواحدة ، بينما أنصار المعتقد المسيحي الرسمي كانوا يكرهون الأوّلين» [٢] .

ثم فضّل المسيحيون المسلمين ، على ما يقوله جواد بولس ، بسبب التقارب الفكري معهم : «نلاحظ أنّ المونوفيزية ، في نظر أتباعها في سوريا ومصر ، تتقارب كثيراً مع التوحيد الاسلامي ، أكثر من تقاربها مع المذهب الديوفيزي (الثنائي) ، أي الخلقيدوني ، الذي كان وضعه الطغيان الامبراطوري وحماه» [٣] .

نتج من الصراعات الدينية ، بين المسيحيين ، طوائف وفرق مختلفة ، لكن الخلافات اللاهوتية لم تكن وحدها سبب الصراعات ، بل كان لهذه الصراعات ايضاً دوافع وطنية وطبقية عميقة الجذور :

---

(١) كان صفرونيوس ، بطريرك القدس الذي سلّم المدينة للخليفة عمر بن الخطاب ، «الذي كان على الارجح مارونياً» كما يقول فيليب حتي في تاريخ سوريا ، ج٢ ، ص ١٥ . «ومن جبّة بشرة» كما يقول الشدياق في أخبار الأعيان ، ج١ ، ص ١٩-٢٠ .

(٢) لبنان ، فؤاد قازان ، ص ١١٨ .

(٣) تاريخ لبنان ، جواد بولس ، ص ٢٢١ .

أ ـ الدوافع الوطنية : جاءت «هرطقات» الكنائس الوطنية السورية بمثابة متنفّس للناس ، عبّروا من خلاله عن رغبتهم في الانفصال عن بيزنطية . أمّا هذه «الهرطقات» ، او الكنيسة اليعقوبية والكنيسة المارونية وسائر الطوائف الوطنية ، فهي التي استقلّت عن بيزنطية ، يوم كانت القسطنطينية تمثّل الكنيسة الرسمية ، وتتهم بالهرطقة كل من خالفها .

ب ـ الدوافع الطبقية : نشأت هذه «الهرطقات» ، مثل «المونطانية» ، وسط بيئة اجتماعية طبقية ، مضادة لامتيازات كبار الكنيسة[(١)] ، مثلما انطلقت من الفوارق الاجتماعية بين الموارنة والملكيين ، كما مرّ معنا .

سياسياً : بعد استعراض الأسباب الاجتماعية والحضارية والكنسية ، لنزعة الاستقلال الوطني عند الموارنة ، لا بدّ من التطرّق الى الأسباب السياسية ـ الدينية ، التي أدّت الى استقلال الكنيسة المارونية ، والى انشقاق الكنيسة الأنطاكية ، بين موارنة وملكيين يدعمهم الحكم البيزنطي .

في تلك المرحلة ، أي في النصف الثاني من القرن السابع ، برز دور المردة بروزاً كبيراً . لكن الآراء تضاربت في تحديد هويّتهم

(١) قازان ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

وأصلهم ودورهم الحقيقي . فمن المؤرخين من اعتبرهم فرقة عسكرية أجنبية ، استقدمها الروم لمحاربة الأمويين . ومنهم من قال انهم من سكان جرجومة ، المدينة السورية الواقعة في جبال اللكام . على انهم «لقّبوا مردة بسبب محاربتهم عساكر يوستنيانوس الأخرم» ، بحسب ما يؤكده البعض[١] .

ليس ضرورياً ، بالطبع ، الخوض في هذه المتاهات المتناقضة . لكن ، مهما تعددت الآراء وتباينت ، يمكن دائماً إبراز الحقائق التاريخية ، التي من شأنها أن تلقي الاضواء على حركة التحرر الماروني ، واستقلال الموارنة عن بيزنطية وتسلّطها .

ما حصل أن الحكم البيزنطي أرسل سنة ٦٦٩ ، فرقة عسكرية احتلت كل ما يقع بين الجبل الاسود في سوريا ، والمدينة المقدسة «القدس» . وشنت هذه الفرقة هجمات عدة ضد الأمويين ، وربما أرغمت جماعة من سكان البلاد الاصليين على مساعدتها . لكن من المؤكد تاريخياً ، ان جنوداً من الإفرنج انضموا الى صفوف هذه الفرقة وقاتلوا الى جانبها[٢] .

استمرّت حالة الحرب بين البيزنطيين والأمويين حتى سنة ٦٨٦ ، حيث وقّع إمبراطور بيزنطية ، يوستنيانوس الأخرم ،

---

(١) الدبس ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .
(٢) تاريخ الصليبيين ، غروسه ، ج١ ، ص ١٩ .

معاهدة صلح مع الأمويين ، تعهّد بموجبها سحب ١٢ ألف جندي . ما يؤكّد أنّ هؤلاء الجنود كانوا من المرتزقة التابعين لبيزنطية ، وأنهم دانوا بالولاء والطاعة لها ، دون أن يكونوا من سكان البلاد الأصليين ، ليرفضوا الانسلاخ عن أهلهم وشعبهم وأرضهم .

في تلك الفترة الممتدة من سنة ٦٦٩ ، أي سنة دخول العساكر البيزنطية لبنان ، وحتى سنة ٦٨٦ ، أي سنة جلائها عنه ، لم يأت التاريخ على ذكر اسم الموارنة ، ولو مرّة واحدة . أما الخلاف الذي برز داخل الكنيسة الانطاكية بين الروم والموارنة ، فلم يطرأ إلا ابتداءً من سنة ٧٢٧ ، على ان الانشقاق تمّ رسمياً سنة ٧٤٢ . كذلك لا نعثر على أيّ ذكر للموارنة تاريخياً ، إلا ابتداء من تلك المرحلة . غير أنّ مؤرّخي الموارنة يجمعون على أن رهبان بيت مارون ، والفئات الشعبية التي التفّت حول الأديار التابعة لهم ، إنما بدأوا دورهم المميّز في تلك الفترة ، اي بين سنة ٦٦٩ و٦٨٦ ، حيث سعوا الى الاستقلال عن بيزنطية ، والتحرر مما كانت تفرضه عليهم من الخطط عبر هيمنتها العسكرية ، بوساطة ما زرعته من جيوش نظامية تابعة لها في لبنان . وانتظر اتّجاه رهبان بيت مارون السياسي الاستقلالي ، أن تزول الهيمنة العسكرية البيزنطية ، حين تم جلاء ١٢ ألف جندي بيزنطي ، فبرز هذا الاتجاه وتعمّق تيّاراً ، حتى تكرّس رسمياً بالانشقاق الديني ، أي في العام ٧٤٢ .

يخبرنا الأب ضو نفسه ، كيف ظهرت الحركة المارونية الاستقلالية ، من بداية نشأتها وحتى تكريس استقلالها ، فإننا نستند الى ما يقوله : سنة ٦٧٦ انتخب يوحنا مارون اسقفاً على البترون ، أما أهمّ دوافع هذا التدبير فهي :

اولاً ، صيانة الموارنة والجراجمة ، المنخرطين في جيش قيادته بيزنطيّة ، من النفوذ البيزنطي ، ومنع انحرافهم عن الولاء للمارونية وللحضارة السريانية ، وكذلك منع انحرافهم عن مبادئ الاستقلال عن بيزنطية ، إيماناً وكنيسة وحضارة .

ثانياً ، صيانة الموارنة والسريان في لبنان ضد خطر النفوذ الملكي البيزنطي ، الذي كان بالإمكان ان يتسرّب إليهم عن طريق القيادة البيزنطية في عسكر المردة [١] .

تمكّن المطران يوحنا مارون من المحافظة على استقلالية سكان البلاد الاصليين ، الذين عانوا القهر على يد المرتزقة الأجانب ، في أثناء الاحتلال البيزنطي . وعندما خرجت قوافل المرتزقة بموجب المعاهدة مع الأمويين ، وزال كابوس الارهاب العسكري البيزنطي ، صمّم الموارنة « . . . على الاستقلال عن بيزنطية كنسياً وسياسياً» ، فانتخبوا حوالى سنة ٦٨٧ «زعيم الموارنة ، المطران مار يوحنا

(١) ضو ، ج١ ، ص ٣٦٥ .

مارون ، بطريركاً على انطاكية»[١] ، بحسب التقليد الماروني .

يتابع الأب ضو قائلاً : « . . . ما إن درى الملك البيزنطي يوستنيانوس ، بأمر انتخاب يوحنا مارون بطريركاً على الكنيسة الانطاكية ، حتى ثارت ثائرته ، واعتبر هذا العمل خروجاً على الارادة الملكية التي كانت ، منذ ما يقارب الثمانين سنة ، تعيّن البطاركة وتعزلهم وتتصرّف على هواها في الشؤون الكنسية ، بدون أن تقيم أيّ وزن لتقاليد الكنيسة الأنطاكية المتوارثة منذ عهد الرسل ، ولمصلحة المسيحية في الشرق والكنيسة الأنطاكية خاصة . إذ ذاك أرسل جيشاً الى سوريا بقيادة موريق وموريقان ، للقبض على البطريرك الجديد وخنق هذه البادرة الاستقلالية في مهدها»[٢] .

ثم يصف الأب ضو هذه الحملة ، فيقول : «ظهر العسكر الرومي فجأة في سوريا ، على مقربة من دير مار مارون ، معقل ومركز القيادة المارونية . فما كان باستطاعة البطريرك ، وقد بوغت بهذا الهجوم بدون انتظار واستعداد ، إلا أن يلجأ الى الهرب الى لبنان ، فتوجّه نحو أبرشية البترون واعتصم في جبالها ، متخذاً من قلعة أسمر جبيل معقلاً له . وهناك أخذ يعدّ العدّة لمجابهة العسكر الرومي ، حين يلحق به . . .

---

(١) ضو ، ج١ ، ص ٣٦٧ .

(٢) ضو ، المرجع السابق ، ٣٦٧-٣٦٨ .

(. . .) وفي سنة ٦٩٤ كانت المعركة الحاسمة ، بعد أن هدم الجيش الرومي دير مار مارون في سوريا ، وقتل من رهبانه خمسمائة راهب . توجّه الى لبنان وحصل الاصطدام بينه وبين جيش الموارنة فانهزم البيزنطيون ، وقتل موريق ودفن في أميون وأقيمت كنيسة على مدفنه . أمّا موريقان فحمل جريحاً الى شويتة في عكار حيث لاقى حتفه ، وأقيمت ايضاً كنيسة فوق ضريحه»[١] .

هكذا نشأت الكنيسة المارونية ، منبثقة من رحم التيار الاستقلالي الوطني ، الذي استطاع ان يعبّر عن نفسه في ظلال الحرية ، بعد زوال الهيمنة العسكرية البيزنطية .

المارونية بين اللاتينية والاستقلال

كيف وقفت روما من الحركة الاستقلالية المارونية؟ وما العلاقات التي نشأت بين الموارنة وروما عبر العصور؟

ليس بخاف أنّ مؤرّخي الطائفة المارونية ، ما فتئوا يدافعون عن كاثوليكية الكنيسة المارونية ، منذ نشأة هذه الكنيسة وحتى اليوم . كذلك يدّعي بعضهم أنّ يوحنا مارون ، إنما عيّنه مندوب البابا في الشرق ، مطراناً على البترون ، مثلما عيّنه نفسه بطريركاً في ما

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦٨-٣٦٩ . يستند الأب ضو الى ما كتبه اسطفان الدويهي والمطران يوسف الدبس عن هذه الحقبة .

بعد . حتى إن البعض الآخر ، يبالغ فيعتبر يوحنا مارون ذا أصل إفرنجي . على ذلك ، سافر البطريرك يوحنا مارون الى روما ، تحصيلاً للتثبيت البابوي .

ليس الادّعاء الهادف الى ربط الكنيسة المارونية بروما ، ليستند الى الوثائق التاريخية العلمية ، إنّما هو أقرب الى الأسطورة والتقليد منه الى الحقيقة الموضوعية . وإذا اختلفت آراء المؤرخين الموارنة وتناقضت حول هذه المسألة ، فذلك ما يثبت ، أن ليس لدى أيّ منهم وثائق ومستندات صحيحة . فلتفنيد هذا الادعاء ، نسرد بعض أهم الحقائق :

١ ـ لا أثر مذكوراً في محفوظات الفاتيكان ، لتعيين يوحنا مارون بطريركاً . بل لا ذكر له مطلقاً ، في جداول البطاركة الأنطاكيين المحفوظة في روما .

٢ ـ يؤكّد الأب ضو في معرض تبريره لحالة الانقطاع بين روما والموارنة ، فيقول : « الغزو العربي (٦٣٦) قطع الاتصال بين المملكة البيزنطية والغرب من جهة ، وسوريا من جهة ثانية . . . لم يتمكّن أي أسقف من سوريا من حضور المجمع السادس »[١] . . .

(١) تاريخ الموارنة ، الأب بطرس ضو ، ج١ ، ص ٣٧٨ .

في القسطنطينية سنة ٦٨٠ ، عقد المجمع السادس وحضره أساقفة الغرب من بيزنطيين ولاتين ، حيث حدّدوا العقيدة الرسمية القائلة بالمشيئتين ، وحرّموا القول بالمشيئة الواحدة . لكن الاساقفة الموارنة لم يحضروا هذا المجمع ، لأنه جسّد اتجاه القسطنطينية وروما معاً . أما قول الأب ضو إن «الغزو العربي» هو الذي عطّل الاتصال ، فتبرير غير مقنع ، لأنّ الأب ضو نفسه أكّد ، كما مرّ معنا ، أن «المردة» سيطروا على لبنان من سنة ٦٦٩ حتى سنة ٦٨٦ ، في حين عقد المجمع السادس سنة ٦٨٠ ، وانتخب يوحنا مارون أسقفاً على البترون سنة ٦٧٦ م .

إنّما تؤكّد هذه التواريخ كلّها ، أنّ انتخاب يوحنا مارون جاء معارضاً للقسطنطينية وروما على السواء . فلم يحضر يوحنا مارون المجمع السادس ، على الرغم من إمكانية الاتصال ، بسبب السيطرة البيزنطية على لبنان . لكننا نوافق الأب ضو في قوله ، إن يوحنا مارون قد «انتخبه الإكليروس الماروني بصورة قانونية ووفقاً لرسوم وامتيازات وتقاليد الكنيسة الانطاكية» [١] تعبيراً منه عن معارضته لروما وبيزنطية معاً .

٣ ـ لا مبرر للتناقض بين روما وبيزنطية كما يرى الاب ضو ، بل على العكس ، هما شكّلتا معاً الكنيسة الكاثوليكية الرسمية .

---

(١) ضو ، ج١ ، ص ٣٥١ .

حصل الانفصال بين الكنيستين الشرقية والغربية سنة ١٠٤٥ [١] . قبل هذا التاريخ يؤكد الأب ضو نفسه «كان الملك البيزنطي في ذلك الزمن او «الباسيليوس» الرأس التنفيذي الأعلى في العالم المسيحي قاطبة ، شرقاً وغرباً . وحتى الحبر الروماني نفسه ، كان يستمد التثبيت من الملك البيزنطي ، لتصبح أحكامه نافذة مدنياً» [٢] .

مع التوافق الديني ، ومع مساهمة جنود من الإفرنج في الحملة العسكرية البيزنطية ضد الأمويين ، مما سبق ذكره ، ذلك ما يؤكّد عدم وجود تناقض ، أقلّه في تلك المرحلة ، بين الإفرنج واللاتين والبيزنطيين ، فلا مبرر ، تالياً ، لأن يعيّن مندوب بابوي ، على رغم أنف بيزنطية ، يوحنا مارون بطريركاً .

٤ ـ عيّن البابا مارتينوس الأول ، ٦٤٩ ـ ٦٥٤ ، المطران يوحنا الفيلادلفي مندوباً بابوياً نائباً عنه في الشرق . يذكر ذلك الأب ضو ، نقلاً عن كارالوفسكي ، فيقول : «إن مهمة المطران يوحنا الفيلادلفي . . . لم تدم إلا ثلاث سنوات ، أي من السنة ٦٤٩ حتى السنة ٦٥٣ ، ومن المعلوم ان الملك البيزنطي كونطانس نفى البابا مرتينوس ومات هذا في المنفى» [٣] . على أنّ جميع المصادر

---

(١) منطلق تاريخ لبنان ، كمال الصليبي ، ص ٧٩ .

(٢) ضو ، ج١ ، ص ٣٢٢ .

(٣) ضو ، المرجع السابق ، ص ٣٦٤ .

الكاثوليكية تؤكّد ، أنّ روما لم تعيّن في الشرق ، بعد الفيلادلفي ، لا نواباً رسوليين ولا قصّاداً .

علاوة عليه ، ليس من صلاحيات وكيل البابا سيامة المطارنة ، فضلاً عمّا إذا كانوا أعلى رتبة ! حتى في أيامنا الحالية ، فلا يحقّ للقاصد الرسولي رسم مطران . وإذا فعل ذلك قاصد سوريا ، حين رسم المطران بولس عوّاد ، مانعه البطريرك يوحنا الحاج والمطارنة الموارنة أجمعهم . كذلك يشهد تاريخ الطائفة المارونية ، على أكثر من حادثة مشابهة ، تنفي صلاحية المندوبين البابويين في رسم المطارنة ، مثلما يتأكّد رفض الموارنة الدائم ، لهذا النوع من التدخّل من قبل روما .

فكلما استسلم الموارنة لإرادة كاثوليك روما ، ناقضوا تراثهم ، وانحرفوا عن مسيرتهم وتاريخهم !

٥ ـ لو وجدت العلاقة بين الموارنة والرومانيين ، يوم انتخب يوحنا مارون بطريركاً ، لبقيت مستمرة في المراحل اللاحقة . لكن التاريخ يثبت أن هذه العلاقة بين الموارنة وروما والإفرنج عموماً ، إنّما بدأت في الأزمنة المتأخّرة فقط ، وبالتحديد بعد الحملات الصليبية .

الحال أنّ روما لم تأل جهداً ، منذ تلك الحملات ، في سعيها

الى ليتنة الطائفة المارونية بوسائل شتّى ، كما عرفت تلك المساعي محطات رئيسية ، أهمها :

١ ـ حدث اللقاء الأول بين الموارنة والفرنجة ، في العاشر من نيسان من العام ١٠٩٩ [١] . غير أن البطريرك إرميا العمشيتي ، هو أول بطريرك ماروني قصد روما لحضور المجمع اللاتراني ، الذي انعقد في العام ١٢١٥ [٢] . ولم يتابع البطريرك مناقشات المجمع ، إذ عاد الى لبنان حاملاً «رسالة من البابا مؤرّخة في ٣ كانون الثاني ١٢١٦ ، وموجودة في خزائن الفاتيكان» . ويعتبر المؤرخون هذه الرسالة بمثابة « . . . أقدم وثيقة معروفة تتعلّق بتاريخ الطائفة المارونية» [٣] . اللقاء الأول تم في العام ١٠٩٩ . والوثيقة التاريخية الأولى ارسلت في العام ١٢١٦ وقبل هذين التاريخين لا يوجد أي مرجع تاريخي يشير الى العلاقة بين الموارنة وروما .

في ذلك الوقت المتأخر «أدخلت روما الى الطقس الماروني ، العادات الرومانية اللاتينية» [٤] .

٢ ـ اضطلع جبرائيل ابن القلاعي بدور كبير جداً ، في سبيل جلب الموارنة الى احضان الفاتيكان . إنه من أوائل الذين تعلموا في

(١) الموارنة ، ملف النهار ، كمال الصليبي ، ص ١٥ .
(٢) الاب ميشال حايك ، جريدة النهار ، ٤/ ٦/ ٧٨ .
(٣) الموارنة ، ملف النهار ، الصليبي ، ص ١٨ .
(٤) الفصول ، عدد ٣ ، ص ٩٣ ، مقالة الاب انطوان ضو .

روما ، لكنه انخرط في سلك الرهبانية الفرنسيسكانية ، قبل ان يعود الى لبنان ليخوض معركة روما ضد اتجاه الموارنة الشرقي .

نجح ابن القلاعي في مهمته نجاحاً نسبياً ، لأنه تسلّح بالعلم ، بينما يعيش الموارنة بمعظمهم في مناخ من البساطة والأمية . كذلك استطاع تدبيج تاريخ الطائفة المارونية ، بما وافق مصلحة روما . ثم هو ألّف زجليّته المعروفة ، التي هي أقرب الى الاسطورة الشعبية الموجّهة ، منها الى التاريخ العلمي ، ليدافع عن كاثوليكية الموارنة ، حتى قيل عنه إنه هادي الموارنة الى طاعة الكنيسة المقدسة . وبالفعل ، تمّت هذه الطاعة سنة ١٤٩٤ .

٣ ـ سنة ١٥٧٧ ، عيّن البابا غريغوريوس الثالث عشر الأب إليانو اليسوعي ، اليهودي الأصل ، قاصداً رسولياً لدى الموارنة .

مكث المندوب الرسولي مدة شهرين في لبنان ، دأب فيهما على البحث والتنقيب في الكتب المارونية ، التي جمعها من الأديار والكنائس ، فأحرق قسماً كبيراً منها ، لاعتقاده أنها تحوي أغلاطاً لا توافق المعتقد الكاثوليكي . على أن الأباتي بطرس فهد يقول : «إن أمر الأب إليانو بإحراق الكتب القديمة ، التي شعر فيها بوجود ما يخالف تعاليم الكنيسة حسب زعمه ، يدلّ بوضوح على هوس ديني ليس له ما يبرره اطلاقاً» [١] .

---

(١) الشرح المختصر ، مجلد ١ ، ص ١٥٠ .

أمّا الأب حايك فيقول : «كان المبعوثون في الغرب ، يحرقون كتبنا في لحفد وحدشيت وبشري ، ويطبعون نصوصنا محرّفة ويردّونها إلينا ، ويفرضون علينا قوانين وعبادات وعادات وترانيم وتعاليم ، غير ما ألفت وأحبّت نفوسنا . . . هذا الاستسلام الكاثوليكي قادنا الى التبخّر» (١) .

٤ ـ سنة ١٥٧٣ ، تأسّست المدرسة المارونية في روما ، من أجل إعداد رجالات الطائفة المارونية ، لكنها علّمت طلابها وفق المعتقد الكاثوليكي ، وأكسبتهم ثقافة الغرب ومفاهيمه . وإذ عاد هؤلاء الطلاب الى لبنان ، أخذوا يبشرون باللّيتنة ، ويدافعون عن كثلكة الموارنة ، خالقين الحجج والبراهين المختلفة ، التي هدفها الوحيد ربط الكنيسة المارونية بروما . كذلك بدأت مع طلاب مدرسة روما ، أول الادعاءات القائلة بنسبة المارونية الى مارون الناسك .

كتب المؤرخ الفرنسي أوساليوس رينودوط ، في معرض كلامه على مؤرّخي الطائفة المارونية من تلامذة روما ، فقال : «قصدوا تمويه الحقيقة على القرّاء الذين قلّ من يتصدى منهم لهذه المباحث ، وحاولوا ان يغشّوا جمهور الناس . . . إن علماء الموارنة لا يدركون الصواب والحقيقة ، في بحثهم عن أحوال اجدادهم ، لأنهم قد أبادوا أكثر كتبهم وصحفهم وآثارهم ، وذلك لشدة

---

(١) جريدة النهار ، ٢٤/ ٣/ ١٩٧٣ .

بعضهم لحالهم السابق ، حال الشقاق الذي كانوا فيه . . .» [١] .

٥ ـ انعقد «المجمع اللبناني» سنة ١٧٣٦ ، بإشراف يوسف السمعاني ، قاصد الكرسي الرسولي ، حيث أُكملت الترتيبات الكنسية واللاهوتية ، التي كرّست انضواء الكنيسة المارونية تحت سلطة روما .

انطلاقاً من هذا المجمع ، كل العرائض التي رفعها البطريرك والأساقفة الموارنة الى البابا ، دلّت على خضوعهم المطلق لأوامر الفاتيكان ، نظراً لأن «في طائفتنا أشياء تقتضي الإصلاح والتهذيب» [٢] .

تضمّنت البراءة الأولى ، التي وجهّها البابا كليمنت الثاني عشر الى يوسف السمعاني أوامر صريحة لفرض الليتنة ، وقد جاء فيها ما يلي : «لمّا كان الاخوة المحترمون ، يوسف بطرس بطريرك أنطاكيا ، ورؤساء أساقفة الطائفة المارونية وأساقفتها ، قد أعربوا لنا عن خضوع في عرائضهم التي انتهت الينا منذ عهد قريب ، مودعة أدلّة جديدة وبراهين ساطعة ، على ثباتهم الوطيد في الديانة الارثوذكسية ، وخالص انقيادهم وأمانتهم واحترامهم لنا وللكرسي الرسولي ، إنّ هناك بعض الامور قد تطرّقت الى

---

(١) الليتورجيا الشرقية ، ص ٣٨ .

(٢) المجمع اللبناني ، طبعة السنة ١٩٠٠ ، ص ٢ .

التهذيب البيعي تدريجياً ، وخطأ نأت عن وضعه وبهائه الأولين ، وأن ليس في أملهم أن يستطيعوا الى إصلاحها وتهذيبها سبيلاً ، من تلقاء أنفسهم . ولذا التمسوا بإلحاح مدد سلطاننا الرسولي وعنايتنا بأن نوفدك إليهم . . . وأيضاً فإنّا نريد ونأمر بقوة خطّنا هذا البطريرك يوسف بطرس ورؤساء الاساقفة والاساقفة ، ونأمرك أنت أيضاً ان ترفع حتماً إلينا والى الكرسي الرسولي كل ما يعرض من الأمور الكبيرة المهمة ، سواء كان في المجمع أو خارجاً عنه ، إذ قد حفظنا الحكم به لنا وللكرسي المشار اليه صريحاً» [١] .

غير ان الليتنة ، في الواقع ، لم تحقق كامل أغراضها ، لأن الشعب جابهها بصمود كبير ، ذلك أن الشعب الماروني تمسّك بجذوره وأصالته ، واستطاع أن يحافظ على قسط من خصوصيّته .

وكما تأثر قسم من الموارنة بروما ، تأثر قسم آخر بالكنائس الشرقية . فقد سعى اليعاقبة الى جذب الموارنة الى صفوفهم ، ونجحوا في الحصول على تأييد قسم منهم ، حتى إنّ التعاليم والصلوات والليتورجيا المارونية تأثرت بهم كثيراً . وتعايش الموارنة مع اليعاقبة في خلال عصور طويلة من الزمن ، وانتشرت الكتب اليعقوبية في الأوساط المارونية [١] . لكن روما نجحت ، بعدما

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦-٨ .

كسبت قادة الرأي والدين من الموارنة ، في وضع حد للتأثير والنفوذ اليعقوبيِّين ، وفي أن تخلق ، بالتالي ، حالة من التناقض والعداء بين هاتين الطائفتين السريانيتين .

مع ذلك ، تثبت دراسة الليتورجيا المارونية أن «الطقس الماروني ، رغم تأثره الهامشي بالطقس اللاتيني ، حافظ على شخصيته الليتورجية المميّزة . . . بيد أن التقارب كبير بين مخطوطات القدّاس الماروني وبين القدّاس السرياني اليعقوبي ، الأمر الذي حمل علماء الموارنة كالصهيوني والسمعاني والدويهي وغيرهم ، على التشديد على هذه القرابة الليتورجية . . .» [٢] .

فما هو مستقبل الموارنة؟ وما هي هويتهم الحقيقية؟ وهل سيكون على الماروني أن يختار دائماً بين الاستقلال والليتنة؟ لربما نترك الأب ضو نفسه يجيب ، حين يقول : «انقطعت الصلة بين الموارنة وبين قواعدهم الحضارية الأصلية . . . إذ ذاك ، لم يجدوا أمامهم مثلاً ثابتة نابعة من صميم حضارتهم ، فتاهوا في بيداء التقليد» [٣] .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول علاقة الموارنة باليعاقبة راجع «أصدق ما كان عن تاريخ لبنان» للمؤرخ فيليب دي طرازي . والطقس الماروني للخوري مخائيل الرجّي ، «مجلة المشرق» ، مجلد ٣٣ ، سنة ١٩٣٥ .

(٢) فصول عدد ٤ ، مقالة بقلم الاب يوحنا .

(٣) ضو ، ج٢ ، ص ٢٣-٤٢٤ .


www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

- ٢ -

الموارنة والصليبيون (*)

بعض الدراسات ينظر الى الموارنة كأنهم كتلة متماسكة وموحدة عبر مختلف الحقب التاريخية . واصحاب هذا الرأي منقسمون الى فريقين : الاول يستهدف تعتيم بعض الاحداث لطمس حقائق تتناقض مع توجهاته الحالية ، والثاني يسعى الى تضخيم بعض الوقائع لدعم وجهة نظره الآنية . وكلاهما يبتغي تسخير التاريخ لأغراض ذاتية ومصالح سياسية فئوية .

في هذا السياق ، نركز على مرحلة محددة من تاريخ الموارنة ، مرحلة الحكم الصليبي ، ونلقي الاضواء على اتجاهات موارنة تلك الحقبة كما كانت ، وهي متمايزة ومتنافرة ومتناقضة ، ما يؤكد ان

(١) نشرت في جريدة «النهار» ، عدد ١٩/ ٢٠/ ٢١ أيلول/ ١٩٨٢ .

من التبسيط والتجني اتهام البعض للموارنة بأنهم جماعة موحدة مرتبطة تاريخيا بالغرب ، او اعتبار البعض الآخر انهم كتلة موحدة متناقضة تاريخيا مع الشرق .

ففي الطائفة المارونية ، كما في كل طائفة ، قوى اجتماعية وسياسية متصارعة تاريخيا ، يتخذ صراعها اشكالاً متعدّدة .

تناقضت آراء المؤرخين حول موقف الموارنة من الصليبيين . فأغرق البعض في الايجابية وفي «التلاحم» و«التآخي» و«المشاركة العسكرية والسياسية» بين الموارنة والصليبيين ، معتبرا كل من تعاون مع المسلمين «خان الموارنة اولا والمسيحيين الشرقيين ثانيا ، والصليبيين ثالثا»[1] .

وبالغ آخرون في السلبية ، زاعمين ان «الموارنة في لبنان يحالفون منذ القدم «الاجانب» و«الغزاة الغربيين» ضد شركائهم المسلمين»[2] . وتجاهلوا كليا دور الموارنة في مساعدة المسلمين على مهاجمة طرابلس سنة ١١٣٧ ، وقتل حاكمها بونس Pons بن برتراند الصنجيلي ، وكيف سهلوا مرور الجيوش الاسلامية عبر جبالهم لتحرير طرابلس من الصليبيين سنة ١٢٨٩ .

(١) وليد فارس ، «التعددية في لبنان» ، ص ٦٧ ، ٧٠ .
(٢) الشيخ حسن تميم ، مجلة «القدس» ، العدد ٢٤ ، تشرين الثاني ١٩٨١ .

وكلا الطرفين يغالي في أحكامه ويتجنى على الوقائع التاريخية ليبرر وجهة نظر سياسية ، وان الموارنة كتلة موحدة متحالفة مع الغرب الصليبي ضد الشرق الاسلامي ، بينما الاحداث التاريخية تثبت ان الموارنة لم يكن لهم موقف واحد موحد ، فكانوا ، شأنهم شأن المسلمين ، منقسمين بين متحالف مع الصليبيين ، ومعادٍ لهم .

وفي محاولة للكشف عن تيارات الموارنة في ظل الحكم الصليبي في بلادنا ، نقسم البحث الى ثلاث حقب أساسية هي :

١ ـ وضع الموارنة قبل الغزو الصليبي وتناقضهم العقائدي مع الكاثوليك

بدأت مسيرة الحملة الصليبية الاولى من اوروبا صيف ١٠٩٦ ، فافتتح الصليبيون انطاكيا سنة ١٠٩٨ ومرت جيوشهم بساحل لبنان في اتجاه القدس في ايار ١٠٩٩ . وتم فتح القدس في ١٤ تموز ١٠٩٩ . ثم تابعت الجيوش الصليبية حملاتها فتمكنت من فتح عرقا وجبيل سنة ١١٠٤ وطرابلس سنة ١١٠٩ وبيروت وصيدا سنة ١١١٠ .

فما هو وضع الموارنة عشية الحملات الصليبية؟

اوضح دليل ، والأثر البارز ، وربما الوحيد ، الذي بقي لنا حتى

الآن ، هو شخصية توما الكفرطابي وما يمثل لاهوتيا من مقولات دينية مناقضة لمعتقد الصليبيين .

عاش توما الكفرطابي بين النصف الثاني من القرن الحادي عشر واوائل القرن الثاني عشر . ومن كتاباته «المقالات العشر» ، سنة ١٠٨٩ ، وهي المجادلات العشر الكتابية بينه وبين البطريرك يوحنا ـ الملكي الكاثوليكي المذهب ـ في شأن المشيئات في المسيح . فكان المطران توما يدافع عن مبدأ المشيئة الواحدة ، في حين كان البطريرك يوحنا يدافع عن مبدأ المشيئتين كما تؤمن به روما والقسطنطينية .

وأمَّ المطران توما سنة ١١٠٤ لبنان ليعمق معتقد الموارنة ويدافع عن آرائهم ضد خصومهم . فمكث في جبة يانوح اربع سنوات . ثم انتقل الى جبة بشري واقام فيها مدة سنتين . وحاول ابن القلاعي ان يبرىء الطائفة المارونية من المطران توما الكفرطابي ، فاتهمه بأنه يعقوبي اندس في صفوف الموارنة وشوه معتقداتهم . ولكن جميع مؤرخي الطائفة لا يستطيعون التنكر لمطران الموارنة في كفرطاب اذ اكد مارونيته السمعاني والدويهي وغيرهما[١] . ويجزم المطران دريان «ان كاتب المقالات العشر كان مارونيا وله مقام عند موارنة عصره»[٢] .

(١) الأباتي بطرس فهد ، «الشرح المختصر» ، ج١ ، ص١٨١ .
(٢) المطران يوسف دريان ، «لباب البراهين» ، ص٢٥٦ .

والمطران توما لم يكن مجرد خروف ضال كما يحاول ان يصوره البعض ، بل كان من أعظم رجالات الطائفة المارونية لتلك الحقبة ، يدافع عن معتقد ملته وظلَّ يمثل اتجاهاً مناقضاً للمعتقد الكاثوليكي الغربي بعد وفاته ، برغم الدور الذي أدّاه الصليبيون في الترغيب والترهيب لكسب الموارنة الى جانبهم سياسياً ومجاراتهم لاهوتياً ودينياً .

وعن الموارنة بعد وفاة المطران توما الكفرطابي يقول المطران يوسف الدبس مستشهداً بالعالم لكويان في المشرق المسيحي ومرهج بن نيرون الباني :

«من اتبعوا ضلال توما اسقف كفرطاب (الذي كان توفي) . . . اطغوا غيرهم من الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة وتوافر عدد المطغين ، حتى ان البطريرك نفسه (لم يذكر اسمه) جنح الى ذلك . فإن ابن القلاعي يقول ما معناه انه بعد توما قام ابن شعبان واخذ يكتب ويعلم الاحداث ويبذر الضلال بين الموارنة ويملأ كتبهم من الزوان . وقام بعده ابن حسان من حدشيت وأطغى اهل كفرياشيت وكتب وغيّر الصلوات وبثّ سم الضلال في قرى اخرى حتى اتصل الى الرأس ايضا اذ قال : «انّ البطرك ابتلع السم بقدر ما يسع الفم» . ولذلك اجتمع رؤساء الموارنة واعيانهم وكثيرون من الشعب وجزموا جميعاً برأي واحد ان ينفصلوا من

شركة البطريرك ، فلم يعودوا يؤدونه الطاعة ولا يقبلونه في البلاد ، بل حملتهم الحمية والغيرة الدينية على انهم حطوه من مقامه وانتخبوا بطريركاً آخر . فحنق لذلك اصحاب البطريرك المعزول وقتلوا البطريرك الجديد وبعد قتل هذا البطريرك ، تعاظم الخلاف والشعب بينهم فتدارك امرهم ايميريكس البطريرك الانطاكي على اللاتين وسكّن روعهم وأخمد جذوة غضبهم وردّ المغوين عن غيهم ، فاتفقوا جميعاً على انتخاب بطريرك صحيح المعتقد . وهذا ما حمل غوليلمس أسقف صور على القول «ان الموارنة كلهم رجعوا عن الضلال سنة ١١٨٢ على يد ايميريكس»[١] .

يتبين من كلام المطران الدبس ان القول بالمشيئة الواحدة المخالف لآراء الصليبيين استمر بعد وفاة توما الكفرطابي (مات نحو السنة ١١١٠) في ظل السيطرة الصليبية ، ودافع عنه قسم كبير من الشعب ودام الخلاف حتى سنة ١١٨٢ . ووراء هذا التناقض في المعتقد خلاف سياسي ماروني ـ صليبي عتّمه المطران الدبس ، سنوضحه لاحقاً .

تشبّث الموارنة او على الأقل ، قسم كبير منهم ، بمعتقد المشيئة الواحدة المناقض لمعتقد الصليبيين ، ما يؤكد وقوفهم او وقوف قسم كبير منهم ضد الحملات الصليبية . وذكرت التواريخ عن قسم من

---

(١) المطران يوسف الدبس ، «الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل» ، ص ١٢٤ .

المسيحيين مناهضته للصليبيين وخصوصاً اصحاب المشيئة الواحدة والموارنة منهم الذين كانوا على تناقض مع بيزنطية وعلى خلاف مع روما فلا اتصال ولا توافق في المعتقدات اللاهوتية كما مر معنا سابقا .

يقول الأب ضو : «عندما اقترب الصليبيون من القدس هرب من فيها من السريان اليعاقبة الى مصر ، ما يدل على انهم لم يكونوا مرحبين بقدوم الفرنج»(١) .

والذين بقوا في القدس رزحوا تحت الاحتلال الصليبي مرغمين . وعندما حرّر صلاح الدين الايوبي القدس سنة ١١٨٧ عامل مسيحييها العرب معاملة المواطنين وبرغم «انهم عاشوا مع المستوطنين اللاتين في المدينة المقدسة تحت الاحتلال فإنهم ظلوا عربا وظل ولاؤهم القومي لأمتهم ، وعندما حانت ساعة الجد كانوا من عوامل خذلان الصليبيين وانتصار صلاح الدين» (٢) . يقول في هذا الصدد المؤرخ مكسيموس مونروند :

«انكشف لهم أن المسيحيين القاطنين في اورشليم (الذين من اهل سورية) كانوا غير محتملين مشاهدتهم اللاتينيين فائزين بالولاية فأضمروا مساعدة صلاح الدين»(٣) .

---

(١) الأب بطرس ضو ، «تاريخ الموارنة» ج٣ ، ص ٤٣٨ .
(٢) محمد عمارة ، مجلة «المستقبل العربي» ، العدد ٣ ، ايلول ١٩٧٨ .
(٣) مكسيموس مونروند ، «الحروب المقدسة» ، ج٢ ، ص٩٢ .

٢ ـ موقف الموارنة من الحكم الصليبي

من جهة وقف فريق من الموارنة الى جانب الصليبيين وقدم اليهم العون .

ومن جهة وقف فريق آخر من الموارنة ضد الصليبيين . سنحاول إبراز دور الفريقين المارونيين وحجمهما :

أ ـ يبرز المؤرخون عادة الموقف الماروني المؤيد للصليبيين ، ويعتمون الموقف الماروني المعارض ، فضلاً عن تضخيم الدعم الماروني للصليبيين وحجمه وأهميته ونوعيته . وعلى هذا الاسلوب امثال عدة منها : يخص بعض المؤرخين بالموارنة دعم الصليبيين[1] وتقديم الأدلاّء اليهم . والواقع ان هذا العمل «لم يتفرد به الموارنة دون غيرهم من المواطنين ، مسلمين ، ونصارى غير موارنة»[2] . كما ان قسما من المسلمين حالف وقاتل مع الصليبيين ضد اخوانه في الدين ، وواجه صلاح الدين حلفاً قوامه ريموند الثالث واسماعيل بن نور الدين والباطنية والاسماعيلية وهؤلاء من المسلمين الذين أيدوا الصليبيين وتعاملوا معهم[3] .

وينسب بعض المؤرخين الى الموارنة الفضل في فتح طرابلس

---

(١) وليد فارس ، المرجع السابق ، ص٦٧ .
(٢) الدكتور زكي النقاش ، «اضواء توضيحية على تاريخ المارونية» ، ص٣٨ .
(٣) الشيخ حسن تميم ، المرجع السابق .

ورد هجمات الملك الظاهر عنها[١] . ويركّز آخرون على «المشاركة العسكرية» التي قاموا بها[٢] . وتوصّل البعض الى ان الموارنة امدوا الصليبيين «بثلاثين الف نبّال»[٣] . المبالغة واضحة ، ويكفي ان نستشهد بما ذكره الأب اليانو وغوليلمس الصوري والأب شيخو وغيرهم ، اذ يثبتون ان عدد الموارنة في حينه لم يتجاوز اربعين الفا[٤] ، وان دور الموارنة العسكري ابان الحملات الصليبية كان مبالغاً فيه وكان مقتصراً على بعضهم وكان محصوراً بمد الصليبيين «ببعض الأطعمة وبالادلاء» كما «فعل فريق من المسلمين والنصارى تكسّباً»[٥] .

ب ـ يعتّم المؤرخون عادة موقف الموارنة المناقض للصليبيين . واتخذ الصراع الماروني ـ الصليبي اوجهاً دينية وعسكرية مختلفة مطموسة في ثنايا الكتب التاريخية . وسنحاول هنا نبشها ووضعها في إطارها . وهناك التباسات عند المؤرخين في بعض الأسماء والتواريخ ، لكن المهم هو الأحداث ودلالاتها .

---

(١) الأب ضو ، تاريخ الموارنة ، ج٣ ، ص٤٤٠ .
(٢) وليد فارس ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .
(٣) فؤاد افرام البستاني ، «مار مارون» ، ص٦٨ .
(٤) الأب لويس شيخو ، «الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية» ، ٢٨ ـ هنري ابو خاطر ، «من وحي تاريخ الموارنة» ، ص١١٥ .
(٥) زكي النقاش ، المرجع السابق ، ص٣٨ .

أواخـر آذار او نيـسـان ١١٣٧ انطلق بزداش امـيـر حلب من بعلبك في اتجاه طرابلس . فسلّم الموارنة اليه ممرات الجبل ورافقوه حتى سهل طرابلس . وحصلت معركة قرب قلعة «صنجيل» قتل على اثرها بونس امير طرابلس وأسر عدد كبيـر من أتباعه . ولما خلف ريموند الثاني أباه بونس ، انتـقم من مـوارنة الجبل وأعـدم النسـاء والأولاد . والحادثة كـما رواها غروسـه ، انه يعتـرف «بأن المسلمين خاضوا معركة ضد صليبيي طرابلس ، وساعدهـم فيـها مـوارنة الشـمـال في أواخـر آذار او نيـسـان من سنة ١١٣٧» . وتفاصيل الحملة غير معروفة تماماً ، ذكـرها غليوم الصوري ، ابن الأثير وابن القلانسي ويتهم غليوم الصوري اولئك بأنهم «اصبحوا ادلاء الجيش الدمشقي حتى سهل طرابلس» ، لأن الكونت بونس ظهر انه فوجىء تماماً بهذا الغزو . ولم يتيسر له الوقت الكافي لكي ينادي الملك فولك (ملك القدس) لمساعدته . واندفع ومن كان موجوداً من الناس («مع محاربيه وجميع الذين ارادوا السير معه» كما يقول ابن الأثير) لمواجهة الدمشقي . ويقول لنا غليوم الصوري «ان المعركـة جرت بالقرب من جبل الحج فإذا كان الأمر يتعلق بجبل الحج ، الذي بناه ريموند صنجيل يعني قصر صنجيل ، قلعة طرابلس الحالية ، فيجب القول بأن الدمشقيين الهابطين من ممرات لبنان باتباعهم مجرى قاديشا وصلوا حتى ابواب المدينة . فانكسر بونس وتشتّت جيشه الصغير . ومترجم غليوم يحمّـل من جديد

خيانة المسيحيين اللبنانيين مسؤولية هذه النكبة . . .» ولكن ريموند الثاني ابن بونس خلف والده القتيل ووضع نصب عينيه مهمة الانتقام له . أما الدمشقيون فآبوا الى ديارهم ، ولكن بقي المسيحيون اللبنانيون المتهمون بالخيانة مرتين ، انهم سلموا الى الأعداء ممرات الجبل وانهم مسؤولون عن قتل بونس . ونظم ريموند الثاني ضدهم حملات انتقامية بدون اقل رحمة . ويتابع غليوم : « . . .جمع ريموند في السر جميع رجاله من خيالة ومشاة ، وصعد بهم فجأة الى الجبل اللبناني واعتقل جميع الرجال المسؤولين والذين ضلعوا في مقتل والده وكذلك نساءهم واولادهم ، وألقاهم في قلعة طرابلس وأذاقهم امام السكان كل انواع العذاب والموت . وهكذا ارتاح باله» .

المؤرخ ر . غروسه ، يعلّق على هذه الهمجية الصليبية قائلا : «نصرف النظر عن التعلق البنوي الذي فرضه قصاص الخونة ، ونرى من المحتمل ان هذا الدرس القاسي يفرض نفسه ، امام اول اشارة الى تدهور السلطة الفرنجية . اذ كان المسيحيون من اصحاب البلاد يهددون بالانحياز الى احياء السلطة الاسلامية»[١] .

والدكتور كمال الصليبي يروي الخلاف الماروني ـ الصليبي

---

(١) R. Grousset, "Histoire des Croisades" tome II Paris 1935 p.67-69.
يؤكد المعلومات نفسها الأب بطرس ضو ، المرجع السابق ، ص ٤٦٨ - ٤٥٤ .

هكذا : «فأخذ موارنة القرى القريبة من الساحل يتقربون من الفرنجة في المدن . . . اما موارنة المناطق العالية من الجبل ، ومعظمهم من ابناء العشائر ، فبقوا متحفّظين تجاه الفرنجة . . . بين فترة واخرى يتحدون الفرنجة ويثورون عليهم . . . تعاونوا مع أتابكة دمشق ضد فرنجة طرابلس في ١١٣٧م» . ويفسّر ايضاً أسباب هذا الخلاف : «فمن الواضح ان الموارنة كانوا على خلاف في ما بينهم في شأن الدخول في طاعة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . ولعلّ الموارنة الذين كانوا على صلة بالفرنجة ـ ومنهم البطاركة وكبار الأساقفة ـ كانوا هم الفريق الذي يؤيد فكرة الاتحاد مع رومية . ولا شك ان الموارنة المتحفظين تجاه الفرنجة ـ وهم كما ذكرنا ابناء العشائر في جبّة بشرّي ومرتفعات جبيل والبترون ـ كانوا هم الفريق الرافض لفكرة الاتحاد هذه . . . ويبدو ان اصرار هذا الفريق من الموارنة على تأكيد ولائه لرومة لم يرق غيره من ابناء الطائفة . فقامت الفتن بين الفريقين على الأثر ، واستمرت هذه الفتن مدة طويلة»[١] .

يروي وليد فارس الصراع بين الموارنة والصليبيين على طريقته . وعن سبب الانشقاق في صفوف الموارنة والعداء للغرب يقول : «دسّ الحكام العرب بعض العملاء في صفوف الموارنة

---

(١) كمال الصليبي ، «منطلق تاريخ لبنان» ، ص ٨٩ و٩٣ . «ملف النهار» للمؤلف نفسه ، ص ١٨ .

وأكثرهم من «الكهنة» ، فزرعوا بذور الانشقاق في صفوف الامة المارونية ، فبشّر رجال الكهنوت هؤلاء بالعداء للغرب ، وأثّر على وحدة الصف الماروني . ومن النكسات دخول الحاكم العربي بزداش من بعلبك الى طرابلس الصليبية وتسهيل الموارنة الخونة في جبة بشري المرور له»[١] .

لا يمكن التسليم بسهولة بأن الحكام العرب دسّوا كهنة لشقّ الصف الماروني ، ذلك ان اسباباً دينية وسياسية تكمن وراء هذا الخلاف . يقول الأب نعمان إن الصدام بين الموارنة والصليبيين هو «نتيجة التسلط ومحاولة ابتلاع فرادتهم ومميزاتهم ككنيسة وكمجتمع»[٢] . أما فؤاد قازان ، فيشدّد على الأسباب الاجتماعية الاقتصادية وعلى الحيف الذي لحق بالموارنة من جرّاء فرض الضرائب[٣] .

ادّى اضطهاد الصليبيين لموارنة الجبل الى غضب الأهالي وسخطهم «منطلقاً لأزمة خطيرة انفجرت بين شطر كبير من الموارنة والفرنج وبلغت ذروتها الدينية عصيان هذا الشطر على رومة وعلى رأسها البطريرك لوقا البنهراني من جبّة بشرّي ، في ١١٤٥ .

---

(١) وليد فارس ، المرجع السابق .

(٢) الأب بولس نعمان ، جريدة «النهار» ١١/ ٢/ ١٩٨٢ .

(٣) فؤاد قازان «لبنان في محيطه العربي» ص١٨٨ .

وبلغت ذروتها العسكرية ان اخذ نور الدين لحصن المنيطرة في سنة ١١٦٥ على الأرجح بتسهيل ومعاونة من الشطر الماروني ذاك ، وان توغل صلاح الدين في جبل الموارنة حتى حصن المنيطرة ايضاً في سنة ١١٨٦»[١] . وتفاصيل ذلك في ما يأتي :

حوادث سنة ١١٣٧ اثارت سخط الموارنة ضد الصليبيين . وارتباط الشؤون الدينية والسياسية والعسكرية آنئذ ادّى الى انقسام ديني وصفه ابن القلاعي في زجليته ملخصا هكذا :

الانشقاق دعا اليه راهبان احدهما من قرية يانوح (قرب العاقورة في جبة المنيطرة) ، والآخر من دير نبوح (الضنية كانت تابعة لجبة بشري) وبشّرا ببدعة أبوليناريوس ، وهي من جذور المونوفيزية والمذهب اليعقوبي وشكل من أشكاله .

و«بلغت الأخبار الى رومية فأرسل البابا رسلا تنذرهم ليرجعوا عن ضلالهم فلم يقبل البطرك رسل البابا لأنه كان سقط في البدعة وكان يسمى لوقا من بنهران . وكثر الشر في البلاد قبل انشقاق المذهب وافتتنوا . . .»[٢] . ويؤكد الأب ضو «أن هذه الفتنة أدت الى عصيان البطريرك على روما ومعه فئة لا يستهان بها من الشعب»[٣] .

---

(١) ضو ، المرجع السابق ، ج٣ ص ٤٧٢ ، يستهل الأب ضو كلامه متحسّراً : «للأسف تصرف الفرنج على أثر حادثة بزداش بعنف وقساوة» .
(٢) ابن القلاعي ، حروب المقدمين ، المجلة البطريركية ، حزيران وتموز ١٩٣٥ ، ص ٢٠ .
(٣) ضو ، المرجع السابق ، ص ٤٧٣ .

استناداً الى ابن القلاعي يقول الأب ضو «ان انشقاق لوقا في ١١٤٥ ظلّ ممتداً في كسروان حتى ١٣٠٨ . . . في هذه المدّة التي ظلّ فيها كسروان منشقّاً عن الكيان الماروني ، بقي موطناً لمسيحيين منفصلين عن المارونية محتفظين بالطقس الماروني ، ولكن لهم هيكلهم الإداري الكنسي والزمني الخاص غير الخاضع للبطريرك الماروني . ولا نصوص ووثائق تدلّ على ما اذا كانوا استمرّوا في بدعة ابو ليناريوس التي انحاز اليها البطريرك لوقا مع مشايعيه أم نبذوها او سقطوا في بدعة اخرى . والأرجح انهم ظلوا موارنة طقساً وإيماناً ، وان كانوا منشقّين عن جسم المارونية ، وان كان الأدريسي يقول عن جونية «انها حصن على البحر وأهلها نصارى يعاقبة» [١] .

على الأثر قامت مصالحة بين الموارنة سنة ١١٨٢ لفترة قصيرة من الزمن ، إذ سرعان ما تجددت الأحداث واندلعت عند وفاة البطريرك ارميا سنة ١٢٣٠ ، وموت امير جبيل سنة ١٢٣٣ ، وكانا من المتعاونين مع رومة والافرنج ، وتمكّنا وقتا من فرض هيمنتهما «لكن يبدو ان هذا السخط والغضب لم يختف اثرهما تماماً . . . تجددت الأزمة بين الموارنة بمناسبة إقامة خلف للأمير المتوفى» [٢] .

(١) نفسه ، ص ٥٢٠ .
(٢) نفسه ، ص ٤٥٩ .

ومن نتائج هذا الخلاف ان «انفصلت جبة المنيطرة ولحفد وانفردتا بإقامة مقدم ومطران خاص بهما . وانشأت المنيطرة ولحفد تكتّلا خاصاً منشقاً عن المجموعة المارونية»[١] .

ويستشهد ضو بابن القلاعي الذي يعلل سبب الانشقاق : «لأنّ بدعة يعقوب كانت دخلت في كثير منهم وافتتنوا واقاموا عليهم اميراً كان من مقدّمي لحفد ورسموا لهم اسقفاً يخصّهم . . . واستقام الانشقاق ثايراً في بلادي جبيل والبترون زماناً»[٢] .

دفعت الفتنة البطريرك دانيال الشاماتي (١٢٣٠ ـ ١٢٣٩) الى الفرار من بلاد جبيل ، والاقامة في كفيفان في اواسط بلاد البترون اتقاء لشر الفتنة[٣] .

ويذكر هذه الأحداث كمال الصليبي : «نحو ١٢٣٠ عادت الفتن تشق صفوف الطائفة . . . خرج موارنة جبة المنيطرة وناحية لحفد ، في أعالي بلاد جبيل عن طاعة البطريرك ، وثاروا على «الملك» (على قول ابن القلاعي ، والمعني على الأرجح صاحب «سنيورية» جبيل ، من اسرة امبرياتشي الجنوية) . ادّت هذه الفتن

(١) نفسه ، ص ٤٦٣ و٤٧٣ .
(٢) نفسه ، ص ٤٥٩-٤٦٠ .
(٣) نفسه ، ص ٤٧٤ ـ ٤٥٩ ـ ٤٦٤ ـ ٤٧٣ - ٤٧٦ .

الى انتقال مقام البطريركين ارميا العمشيتي ودانيال الشاماتي لانتشار الفتن بين الموارنة في زمانها»[١] .

والانشقاقات العميقة والمتعددة داخل الطائفة المارونية حول الاتحاد مع رومة والموقف من الافرنج ، أضعفت من دور البطاركة ورجال الدين وقوّت موقف المقدمين . ودخل بعض هؤلاء في طاعة سنيورية جبيل ، «غير ان البعض الآخر من المقدمين الموارنة لم يتعاون مع الفرنجة بل عمل ضدهم في أحيان . ويرد في زجلية ابن القلاعي ذكر اسماء بعض هؤلاء ومنهم المدعو سالم ، مقدّم بشري»[٢] .

وامتدّت ولاية المقدم سالم من سنة ١٢٥٠ الى ما بعد ١٢٩٢ .[٣] وخلال ولايته حصلت احداث هامة اختلف المؤرخون حول تفاصيلها وبعض التواريخ والأسماء ، لكنها برغم التباينات الجزئية ، لها اهميتها ومدلولاتها .

والانشقاق في الطائفة المارونية صار الى ذروته في ١٢٨٢ ، عندما توفي البطريرك دانيال الحدشيتي (وهو غير دانيال الشاماتي) في ميفوق . فقام الموارنة الخارجون عن طاعة رومة (وكذلك عن

---

(١) كمال الصليبي ، «منطلق تاريخ لبنان» ص ٩٤ .
(٢) نفسه ، ص ٩٥ .
(٣) ضو ، المرجع السابق ، ص ٤٦٤ .

طاعة الفرنجة) بانتخاب المدعو لوقا البنهراني (وبنهران قرية من جبّة بشرّي) بطريركا عليهم . «واتخذ من الحدث مقراً حصيناً له وأخذ يناهض الفرنجة في طرابلس ويقطع عليهم دروب الجبل ، فاستدعى صاحب سنيورية جبيل الأساقفة الموارنة الموالين لرومة والفرنجة وحثّهم على انتخاب أرميا الدملصاوي بطريركا . وأرسل على الفور الى رومة ليأتي بتثبيت لانتخابه من الحبر الأعظم»[١] .

الأب ضو ، عبر وثائق قديمة ، يؤكّد ان دانيال الحدشيتي كان بطريركاً سنة ١٢٨١ وأرميا الدملصي كان بطريركا سنة ١٢٨٢ ولوقا البنهراني كان بطريركاً سنة ١١٤٥[٢] .

واجتاح المماليك بعض قرى جبة بشري . ولم يتفق المؤرخون على تحديد سنة ١٢٨١ او ١٢٨٢ او ١٢٨٣ [٣] وقتل في تلك الحملة البطريرك الماروني (الصليبي اعتبره لوقا البنهراني في المرجع السابق ، والأب ضو اعتبره دانيال الحدشيتي ـ في المرجع السابق) .

ويقول الدكتور زكي النقاش استناداً الى الدويهي والأمير حيدر الشهابي ، بأن المماليك لم يقتلوا أي بطريرك بل نشروا «لواء

---

(١) الصليبي ، «تاريخ الموارنة» ، ملف النهار ، ص ١٨ ـ ١٩ .
(٢) الأب ضو ، المرجع السابق ، ص ٤٧٥-٤٧٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٧٥-٤٧٧ .

الأمن والنظام في المنطقة الجبليّة ، بأسلوب ذلك الزمن . . .»[1] .

إذا تخطّينا الأسماء والتواريخ حيث هناك خلاف ما ، فتلك الأحداث كانت منطقياً على هذا الشكل :

في ايام حكم المقدّم سالم (١٢٥٠ ـ ١٢٩٢) جرى انشقاق داخل الطائفة المارونية حول الاتحاد مع رومة والموقف من الصليبيين ما قاد الى انتخاب بطريركين على الطائفة ، وتعاون قسم مع صاحب سنيورية جبيل ورومة ، وقسم بزعامة المقدّم سالم ، تعاون مع المسلمين المماليك ، وسهّل المقدم دخول جيوش المماليك الى بعض قرى جبة بشري وضرب خصومه فيها ، وربما كان هؤلاء من المؤيدين للاتحاد مع رومة والمتعاونين مع الفرنج والمدافعين عن طرابلس الصليبية ضد محاولات المماليك للاستيلاء عليها في سنتي ١٢٦٤ او ١٢٦٦ .

وقضى المماليك على حلفاء الصليبيين وساعدهم المقدم سالم وقسم من اهالي الجبة ، وذكر ابن القلاعي بعضهم امثال ابن الصبحا من كفرصغاب وآخرين من بريسات . ثم شنّت جيوش بيبرس مع المقدم سالم وانصاره هجوما على طرابلس سنة ١٢٨٧

---

(١) زكي النقاش ، المرجع السابق ، ص ٤٣ ـ ٤٥ .
عبارة «اسلوب ذلك الزمن» بدلاً من القمع هو تبرير لبطش المماليك الذين لم يميزوا في حملتهم إلا قرية بشري ولم يدركوا عمق التناقض الماروني الصليبي .

وفتحوها . ويسرد تلك الأحداث الأب ضو متهماً المقدّم سالم بالخيانة لأنه «مهّد» لجيوش المماليك اجتياح الجبة و«تواطأ» مع «المعتدين» لفتح طرابلس[١] .

وعن نقمة الموارنة التي دفعتهم الى التعاون مع جيوش المسلمين سنة ١٢٨٧ لتحرير طرابلس من الصليبيين ، يقول الصليبي : «كانت المعارضة للاتحاد مع رومة ، في تلك الاثناء تزداد قوة وانتشارا بين الموارنة حتى قلق الفرنجة ، وخصوصاً أن الفئة المعارضة للاتحاد لم تكن على علاقة حسنة بالفرنجة»[٢] .

ويقول الصليبي في المكان نفسه ، ان الانشقاقات لم تكن آنية بل دامت فترات مختلفة وطويلة «غير ان الانشقاق في صفوف الطائفة لم ينته على الأثر بل استمر حتى خروج الفرنجة نهائياً من بلاد المشرق» .

ولهذه الخلافات العميقة والطويلة بين الموارنة والصليبيين اسباب وطنية واجتماعية . اهمها كما حددها الأب ضو :

١ ـ «الزهو وبعض الغطرسة والاستبداد من جهة الفرنج» و«اختلاف المزاج الفرنجي والمزاج الشرقي الماروني» و«عنجهية بعض الفرنج» .

(١) ضو ، المرجع السابق ، ص ٤٦٣-٤٦٤ .
(٢) الصليبي ، «ملف النهار» ، ص ١٨ ـ ١٩ .

٢ ـ «الضغط من الكنيسة الرومانية على الكنيسة المارونية في اتجاه «الليتنة» في مجال الطقوس والعادات والادارة والتنظيم الكنسي» .

٣ ـ «الاختلاف في الأسلوب من حيث التعامل مع المسلمين . . . لا شك ان قسماً من الموارنة كان يميل الى الأسلوب السلمي . . . وكان يمتعض من العنف المتغلّب عند الفرنج»[١] .

وفؤاد قازان يعلّل : «ولا يمكن تفسير هذه الثورة (ثورة الموارنة ضد الصليبيين) ومساعدة الموارنة للمسلمين الا في ناحية الحيف الذي لحقهم من جرّاء ترؤّس الصليبيين وسيادتهم عليهم وارغامهم على دفع الضرائب ، تماماً كما كانوا يفرضونها ويجبونها بالقوة من فلاّحيهم وأقنانهم في فرنسا»[٢] .

وكمال الصليبي يذكر ايضاً : «وكان الفرنجة ، على وجه العموم ينظرون الى المسيحيين من ابناء البلاد بشيء من الغطرسة ويعتبرونهم ادنى مرتبة ، ولعلّ في ذلك ما يفسر نقمة بعض الموارنة عليهم»[٣] .

---

(١) ضو ، المرجع نفسه ، ص ٤٦٩ ـ ٤٧١ .
(٢) فؤاد قازان ، «تاريخ لبنان» ، ص ١٨٨ .
(٣) الصليبي ، «ملف النهار» ، ص ١٨ .

٣ـ الموارنة بعد هزيمة الصليبيين حتى أواخر القرن الخامس عشر

استمرت الانشقاقات داخل الطائفة المارونية بعد خروج الصليبيين من البلاد ، وان استمروا على شن الغارات من حين الى آخر . ومن أبرز الخلافات والانشقاقات كما رواها الأب ضو استناداً الى ابن القلاعي :

١ ـ «في سنة ١٣٥٧ كان يوحنا بطريركا على الموارنة . اتبع هذا البطريرك هرطقة اليعاقبة» ما سبب انشقاق الموارنة الى شطرين : «موارنة بلاد جبيل ـ البترون الذين تمسكوا بالإيمان المستقيم ، وموارنة جبة بشري او بعضهم الذين انساقوا مع البطريرك في الهرطقة . . . اشتدّت أزمة هذا الانقسام وأدّت الى اقتتال دموي بين الفئتين ولم يستطع المقدم او الكاشف نقولا السيطرة على الموقف . وتمرد القسم المتمسّك بالإيمان القويم على البطريرك واخيراً خلع وأقيم البطريرك جبرائيل من حجولا» .

في سنة ١٣٦٥ هجم فرنجة قبرص على الاسكندرية فاتهم المماليك قسماً من الموارنة بمساعدتهم وجردوا حملة انتقامية ضدهم في سنة ١٣٦٦ ـ ١٣٦٧ . و«اثار سخط المماليك على النصارى وخاصة الموارنة ، بسبب الدور الذي كان لهم في معارك فرنج قبرص مع المماليك . . . فاجتاح المماليك الموطن الماروني وتوغّلوا فيه حتى مقر البطريرك وكان يسمّى جبرائيل من

حجولا . . . وسهّل القسم المتورّط في البدعة من الموارنة والمناوىء للبطريرك ، للمماليك القبض على البطريرك»[١] .

٢ ـ كانت القيادة المارونية العسكرية والسياسية والدينية في بلاد البترون وجبيل . لكنّ التطورات داخل الطائفة ، وارتباط قسم من الموارنة مع الصليبيين ، وتحالف القسم الآخر مع المسلمين ، وانتهاء دور جيوش الافرنج وعودة السيادة الى الحكام المسلمين ، كل هذا غيّر في موازين القوى ، وكان منه «انتقال القيادة المارونية الى بشري التي لازمت ، منذ الصليبيين ، سياسة سلسة تجاه الدول الاسلامية المتعاقبة» . ودعماً لموقف بشرّي ومكافأة لتعاونها مع المسلمين ، عيّن السلطان برقوق يعقوب (١٣٨٢ ـ ١٤٤٤) مقدماً على بشري بموجب صكّ . وما لبث ان انتقل مركز الزعامة الدينية من بلاد جبيل ـ البترون الى جبّة بشرّي ليلتحق بمركز الزعامة العسكرية والسياسية والوطنية . «واصبح وطن الموارنة القومي منذ اوائل عهد مقدّمي بشرّي تابعا لولاية طرابلس الاسلامية»[٢] .

وآنئذ بدأ يتجاذب الموارنة فريقان . الاول : اليعاقبة ، خصوصاً بعد قدوم ديوسقوروس بطريركهم الى لبنان وانحياز بعض الموارنة اليه ، منهم نوح البقوفاني . . . والثاني : اللاتين ، على اثر النشاط

---

(١) ضو ، ج٤ ، ص ٣٠-٣٦ : يلاحظ التداخل في الروايات التاريخية بين احداث ١٢٨٣ التي سبق ذكرها ، وأحداث ١٣٦٦ حيث الاشارة الى اسم البطريرك جبرائيل .
(٢) الأب ضو ، «تاريخ الموارنة» ، ج٤ ، ص ٤٢-٤٧ .

الملحوظ الذي بدأت تقوم به الرسالة الفرنسيسكانية لدى الموارنة ، وكان من ثمارها انضمام جبرائيل ابن القلاعي الذي كان له الدور الرئيسي في ليتنة الموارنة وربطهم برومة .

٣ ـ في سنة ١٤٨٧ وقع الشقاق في جبل لبنان لميل المقدم عبد المنعم ايوب (١٤٧٢ ـ ١٤٩٥) الى اليعاقبة وتشجيعهم على بناء الكنائس لهم ، فتمكنوا من جذب قسم من السكان . «وهذه مرة رابعة منذ سقوط لحفد في البدع ودخول الانشقاق بلاد جبيل»[١] .

وبرغم الاتهامات التي يوجهها بعض المؤرخين الموارنة الى هؤلاء المقدّمين «الخونة» ، فإنهم حققوا العمران والمنجزات في موطنهم . ويصف المطران الدبس نقلاً عن الدويهي ، الازدهار في المناطق المارونية في أثناء حكم مقدّمي بشري : «في أيام هؤلاء المقدمين استتبّت الراحة في لبنان وكثر العمران وانشئت الكنائس والمدارس . . . وكان في قرية الحدث ستماية زوج بقر ، وفي الحارة العليا من اهدن سبعون بغلاً . . . مئة وعشرة نساخ . . . ساد في لبنان الأمن والراحة وقصده كثيرون من البلاد البعيدة للسكن فيه»[٢] .

(١) الأب بطرس ضو ، «تاريخ الموارنة» ج٤ ، ص ٥٧-٥٨ .
(٢) المطران يوسف الدبس ، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل ، ص ١٥٩ الدويهي «تاريخ الأزمنة» ص ٢٠٧ ، بيروت ١٩٥١ .

الى الازدهار الذي أتاه المقدمون المتعاونون مع الحكام المسلمين ، نما خلاف طائفي من اسبابه سوء استعمال المماليك عنفهم لحل المشاكل السياسية ، وتضخيم هذا العنف لدى قسم من الموارنة وإعطاؤه أبعاداً دينية : فإن العنف الذي مارسه المماليك ضد قسم من الموارنة في ظروف مختلفة ، كان من جهة اول اضطهاد قام به المسلمون ضد بعض الموارنة ، ومن جهة استغله بعض الموارنة وضخّمه وعمّم اسبابه ، ورسّخه في ذاكرة الطائفة ، على أنه اضطهاد ديني شمل الموارنة جميعاً . لكنه في الواقع سياسي وله اسبابه غير الدينية . وهو على كل حالٍ عنف مدان وان كان له بعض المبرّرات :

١ ـ دخول المماليك جبة بشري سنة ١٢٨٣ تم مع المقدم الماروني سالم ، وسببه تعاون بعض الموارنة مع الصليبيين وحمايتهم لطرابلس مرات عدة من هجمات المماليك .

٢ ـ نكبة كسروان سنة ١٣٠٥ ويصوّرها البعض انها كارثة مارونية ، استهدفت في الواقع اهالي كسروان «الجرديين» او «الجبليين» بحسب الوثائق ، والذين شنّوا هجمات متكرّرة على جيوش المماليك . وهم ساعدوا جيوش غازان المغولية . واختلف المؤرخون حول تحديد الهوية الدينية لسكان كسروان آنذاك ، لكن معظمهم يرجّح انهم من الدروز والمتاولة والنصيرية وقلة مارونية .

كما لا دليل على ان الموارنة هم المستهدفون مباشرة او لأسباب دينية[١] . وأكد وليد فارس ان حملة كسروان استهدفت الشيعة لإنهاء الانحرافات داخل الاسلام . و«ازالة القوة المسيحية» والسبب «تعامل المسيحيين مع الصليبيين ورفضهم للحكم العربي»[٢] .

٣ ـ وسنة ١٣٦٦ أعاد المماليك الكرّة ودخلوا جبة بشري لتأديب الموارنة الذين تعاونوا مع الصليبيين في هجومهم على الاسكندرية ، وتعاونوا مع الفريق الماروني الآخر الذي سهّل لهم طريقهم لاجتياح الجبل . إضافة الى العنف السياسي المملوكي ، كان لتدخل الصليبيين دور هامّ في انحراف المارونية عن خطها الوطني . فتمكن الصليبيون من شق الطائفة وكسبوا بعضها عبر المصالح والخدمات التي أدّوها للمستفيدين من وجودهم في بلادنا . وتصاعد هذا التعاون مع الزمن الى ان بلغ قادة الفكر والدين في الطائفة امثال ابن القلاعي . وتوّج التعاون تكريس البطاركة الموارنة لدى البابوات ، ثم قيام المدرسة المارونية في رومة التي لعبت دوراً هاماً في التبادل الحضاري ، لكنها في الوقت نفسه كانت عاملاً رئيساً في هيمنة رومة ، على قادة الفكر والدين الموارنة ، تلك الهيمنة التي ترسّخت بشكل نهائي في المجتمع اللبناني . كل ذلك بدّل في مسار المارونية وجلب العادات والتقاليد

---

(١) فؤاد قازان ، «تاريخ لبنان» ، ص ٢١٤ . ويستند الى الأب لامنس والدويهي وجوبلان
(٢) وليد فارس ، التعددية في لبنان ، ص ٧٥ .

والنظم والمفاهيم اللاتينية ، ولكنْ استمرّ التيار الوطني الماروني رافضاً الانجراف والانسلاخ عن التراث وظلّ محافظاً عليه حتى أيامنا هذه .





الفصل الثاني

نقد مقولات الحرب الأهلية (*)



(*) عن سؤال الهوية عند الموارنة في القرن التاسع عشر أصدرت كتابين الأول بعنوان «هجرة الموارنة الى الجزائر» والثاني «عروبة يوسف بك كرم» ويركزان على هوية الموارنة بين الهجرة والتهجير ، واشكالية العروبة والعثمانية والتغريب .
هذا الفصل يتمحور حول سؤال الهوية عند الموارنة خلال الحرب الأهلية الأخيرة ويحلل مواقف الموارنة والمواقف من الموارنة حول أهم المقولات التي دار حولها الصراع تكتسب هذه الدراسات أهميتها بكونها كتبت ونشرت في ظل أجواء التقاتل .

ـ ١ ـ

التعددية والضمانات(*)

تميّزت منطقة المشرق العربي بتعدّد الاقوام والثقافات والديانات التي عاشت فيها . ويجمع المؤرخون على مختلف آرائهم ومشاربهم ، على تأكيد هذه الظاهرة .

إنّ القوى الطائفية تحاول استغلال هذه الظاهرة المشرقية وحرفها عن واقعها التاريخي والاجتماعي ، لتمرير مشاريعها الخاصة في بناء دولة لها .

سنركّز بحثنا بخاصة حول الانعزالية اللبنانية التي تتبنى التعددية كأساس لدعوتها التقسيمية الانفصالية ، والتي تعطي هذه

(*) نشرت هذه الدراسة في مجلة «فكر» ، مجلد العام ١٩٨٢ .

التعددية مفاهيم خاصة ومغلوطة .

هذه المفاهيم هي :

١ - حصر التعددية في لبنان

يحاول منظّرو الانعزالية حصر مسألة التعددية في الاطار اللبناني فقط ، متجاهلين كونها سمة تطبع المشرق العربي بكامله . يقول الاستاذ وليد فارس احد منظّري الكسليك :

«لبنان المسيحي قبل الفتح ، كان مرتبطا بسوريا المسيحية وفلسطين المسيحية . . . ولكن تغيير ملامح المنطقة المحيطة بلبنان وفرض العروبة عليها ، فكَّ الارتباط العضوي بين سكان لبنان المسيحيين وسائر المنطقة المعرَّبة . . . المنطقة شهدت تناقضاً ، لا ، بل مواجهة بين قوميّتين : عربية اسلامية ومسيحية شرقية استوطنت في لبنان واصبحت لبنانية»[١] .

ويدّعي الكاتب انّ المسيحيين توطّنوا في لبنان وألّفوا «أمّة» تضمّ جميع الطوائف والقوميات والاثنيّات المسيحية السورية والعراقية والفلسطينية واللبنانية السابقة للفتح . وهنا يمكن القول بأن «سوريا الكبرى» او «الهلال الخصيب» الذي جمع في شبه وحدة جغرافية هذه الشعوب العريقة ، قد انتهى مع دخول الجيوش

(١) وليد فارس ، التعددية في لبنان ، ص ٣٤ .

العربية . فثقافات الهلال التي انتمت الى حضارة واحدة ، قد تراجعت الى جبل لبنان ، واضعة على جروده ما تبقّى من هذه المنطقة ومن حضارتها . . . انّ قسما «كبيراً» من المسيحيين في لبنان لم ينس السهول الفسيحة التي حرثها ، ولا المدن الشرقية الكبرى التي بناها ، ولا الحضارة العظيمة التي ساهم في اقامتها على اراض ملكها لقرون عدة ، بل لآلاف السنين ، قبل ان يغادرها ليلجأ الى لبنان . . . فهوية المسيحيين اللبنانيين هي هوية سوريا الكبرى التاريخية . وعندما يدافع المسيحيون عن حريّتهم الحضارية ، فهم يدافعون عن هوية سوريا الكبرى ، مع علمهم بأنهم لن يستطيعوا ان يستعيدوها . . . فالأمة السورية القديمة هي أمّ لبنان التي ازالها الفتح العربي نهائياً . . .»[١] ينطوي كلام الاستاذ فارس على مغالطات عديدة وان اعترف بحقائق لم يستطع ان يتجاهلها .

لقد أكّد من جهة على الارتباط الشعبي بين سكان لبنان وسائر مناطق الهلال الخصيب ، خصوصاً انه اشار في مكان آخر الى ان «الملايين التي كانت في المنطقة قبل الفتح لم تختف كلها ، بل استمرّت في العيش ضمن رؤية مختلفة ، وعلى اسس حياتية اخرى هي اسس عربية اسلامية»[٢] ويذكر ايضاً «ان القوات العربية

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠-٤٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

التي دخلت الشام وفلسطين حوالى سنة ٦٣٥ لم يتجاوز عددها المئتي الف رجل» ثم يذكر «ليس باستطاعة أيّ جيش مهما كان قوياً ، ان يحتلّ بالقوة بلاداً ويستمرّ في الاحتلال أبدياً ، ما لم يتحوّل الشعب المحتل الى شعب الجيش الاحتلالي» .

ويتجاهل هنا أنّ الفاتحين لم يواجهوا حكّاماً وطنيين بل محتلّين بيزنطيين نكّلوا بالسكان الوطنيين الذين رحّبوا بالفاتحين المسلمين ليتخلّصوا من الاباطرة المسيحيين .

تحوّل الشعب من معتقد الى آخر ولم ينقرض . كما تحوّل سابقاً من الوثنية الى المسيحية . وهذا الشعب الواحد الذي كان وثنياً ، ثم اصبح في معظمه مسيحياً ، ثم انتقل قسم كبير منه الى الاسلام ، هو نفسه صاحب «الحضارة العظيمة» التي ملكها «لآلاف السنين» كما يقول الاستاذ فارس نفسه . ولكنّه بشطحة قلم يريد ان يفصل المسيحيين في لبنان عن حضارتهم التي عمرها آلاف السنين ، بينما هو يعتبر ان المسيحية في الهلال الخصيب لم تنفصل عن هذه الحضارة في المرحلة الوثنية . الشعب هو واحد وحضارته واحدة ومتواصلة ، وتحوّله من دين الى آخر ـ والدين هو أحد اوجه الحضارة ـ لا يعني انقطاعاً عن الجذور التاريخية بل وتحوّله خاضع لواقع الحضارة والشعب .

ومن المغالطات التي وقع فيها الاستاذ فارس ، هي تجاهله

لملايين المسيحيين الذين ما زالوا يعيشون حتى الآن في فلسطين والاردن وسوريا والعراق . . . لقد اراد حصر المسيحية في لبنان ليبرّر دعوته لقيام دولة مسيحية فيه ، بينما المسيحية في الواقع اكثر انتشاراً واتساعاً ووجوداً في المشرق ، ولا يمكن تجاهل المسيحيين ودورهم ومصيرهم . ولا بد بالتالي من العمل لإيجاد حلّ يشمل المنطقة بكاملها بمن فيها المسيحيون أينما وجدوا في المشرق .

٢ - حصر التعددية بالمستوى الديني

كما قلّصوا التعددية الى حدود لبنان ، كذلك قلّصوها الى المستوى الديني فقط ، واعتبروا ان «الالتقاء بين الحضارة الاسلامية والحضارة المسيحية وتواجد الاثنتين معاً على بقعة جغرافية واحدة يفرض على أيّ هيكلية تريد ان تنظّم الحياة في هذه البقعة ، ان تقوم من خلال احترام مبدأ التعددية وتطبيقه»[1] .

ودعاة التعددية الدينية يتجاهلون التعددية الاقوامية والطائفية والاثنيّة والعائلية والعشائرية والمناطقية ، فضلاً عن التناقضات الطبقية .

إنّ حصر التعددية بالمستوى الديني هو اجتزاء وتشويه .

إنّ العقيدة المسيحية رغم كونيّتها ، لم تستطع ان توحّد

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

المسيحيين عامة والمسيحيين الشرقيين خاصّة . المسيحيون في المشرق هم طوائف خاضت تناحرات دامية في ما بينها ، وما زالت حتى اليوم رغم المعتقد الكاثوليكي الذي يجمع اطرافاً منها تعرف باسم قومها . الكنيسة الارمنية الكاثوليكية والكلدانية وكنيسة الروم والموارنة والكنيسة الأشورية والسريانية واللاتينية . وكذلك الاسلام لم يوحّد الكردي والدرزي والشيعي والسنّي والتركماني .

هذه طوائف على حجم الاقليّات الاتنية .

التعددية ليست دينية فحسب ، بل هي اقوامية ايضاً ، طالما لم نصل بعد الى مرحلة الوعي الوطني ، وهي طوائفية بحيث توجد تعددية طائفية داخل كلّ دين .

وداخل كلّ طائفة توجد تعددية على مستوى المناطق (الشمال الماروني - وكسروان) والعائلات والقبائل والعشائر ، فضلاً عن انقسام كلّ طائفة الى طبقات متصارعة ، لها مصالح متناقضة .

إنّ التعددية في واقعها التاريخي والاجتماعي ، ليست محصورة بين المسيحية والاسلام ككتلتين موحّدتين متناقضتين . بل هي واقع يتعداهما ، يشمل مختلف الانقسامات والبنى والفوارق الموجودة داخل كلّ دين . من هنا كلّ دراسة او حلّ لا يأخذ بالاعتبار هذه التشكيلات الاجتماعية القاعدية وهذه

المعطيات التاريخية المتنوّعة ، يقع في الاجتزاء والخلل والتقصير .

٣. نشأة التعددية تاريخياً

يصوّر منظّرو التعددية في لبنان أنّ هذه المشكلة قد ظهرت بفعل لقاء الحضارتين المسيحية والاسلامية على ارض واحدة ، بعد الفتح العربي [١] . ويتجاهل اصحاب هذا الرأي ، النشأة التاريخية للتعددية ، ومفهوم مختلف الاديان لها ، وطبيعة العلاقات بين الاديان .

أ ـ **الوثنية** : وسمت الوثنية مجتمعات العصور القديمة بالتعددية لتعدّد الآلهة عند الشعب الواحد ، والفتوحات كانت تخضع لسلطانها الشعوب وتتّخذ من آلهتها حليفاً في تثبيت هيمنتها . يعتبر الدكتور ادمون رباط ان التعددية الدينية لها سمة خاصة وهي ان «وثنية القدماء اسبغت عليها روحا تسامحيّة اتاحت لها ان تتعايش ، بلا صراع ولا منافسة مع سائر المعتقدات الاخرى . وهذا ما يفسّر لنا كون العصور القديمة لم تشهد حروباً دينية بملء معنى الكلمة» [٢] .

ب ـ **اليهودية** : يؤكّد الاستاذ ربّاط في المكان نفسه «لم تتعرّض

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣ .
(٢) جورج قرم ، تعدد الأديان وانظمة الحكم ، ص ٧ .

هذه التعددية الدينية لهزّتها الاولى إلاّ مع ظهور التوحيد اليهودي» والتوحيد بشكل عام - خلافا للوثنية التقليدية - يمارس هيمنة شاملة وحصرية على الفرد ، ويعتبر كل تسامح ازاء الشيع الدينية الاخرى خيانة لمثله . ولقد غالت اليهودية في تعاليمها وانغلاقها وانعزالها ، ما حال دون اندماجها في المجتمع المحيط بها ، وهي بالتالي لا تستطيع ان تتعايش مع الاديان الاخرى لأحادية نظرتها ، ولأنها لا تعترف بوجود تعددية دينية الى جانبها .

ج ـ المسيحية : تميزت المسيحية بهاجس الوحدة على مختلف الاصعدة . فانطلاقا من ايمانها التوحيدي دينيا ، حاولت ان تحافظ على وحدة الزمني والروحي ، ولذلك نشأت المنازعات بين الدولة والكنيسة . كما سعت الى الوحدة الكونية ، فتمسّكت بوحدة الامبراطورية رافضة اعتبار الممالك تؤلّف شعوباً مختلفة ، كما ارادت تكريس مفهوم واحد للمعتقد الديني ، فحاربت كلّ من خالفها متّهمة إيّاه بالهرطقة .

لقد حاولت المسيحية عبر تاريخها الطويل ، المحافظة على هذه الوحدة (وحدة الزمني والروحي - وحدة الامبراطورية - وحدة المعتقد) . لكن ، مع تطور الزمن ، سقطت هذه الوحدة ، وانفصلت الدولة عن الكنيسة ، وتحرّرت شعوب الامبراطورية وانتزعت استقلالها الوطني ، وتنوّع المعتقد الديني رافضاً هيمنة المعتقد الواحد ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لاستقلال الشعوب

وانفصال الزمني عن الروحي والتوق الى الاصلاح والتحرر والتجديد .

إنّ مفهوم الوحدة في المسيحية انعكس على علاقاتها الطوائفية ، فأدّى الى سعيها لتحقيق وحدة قسرية لم تخل من اضطهاد من أسمتهم بالكفار والهراطقة . المسيحية ، خصوصاً في عصورها الاولى ، لم تتصوّر الخلاص خارج تعاليمها . وانطلاقاً من نزعتها التوحيدية ، لم تعترف بوجود تعددية دينية او طائفية . واستمرّت المسيحية على هذا المنوال حتى الثورة الفرنسية التي اطلقت شرارة العلمنة . واليوم ما زالت مجتمعات مسيحية عديدة ترفض العلمنة ، بينما اخرى تفهّمت الواقع التعددي واعتبرت العلمنة والديموقراطية طريقاً للخلاص بدلا من الوحدة الدينية القسرية .

د ـ **الاسلام** : يقول ادمون ربّاط : «كانت الدولة الاسلامية بلا ريب دولة دينية . . . ولكن لأول مرة في التاريخ امكن لدين موحّد حصري النزعة وميّال هو الآخر الى الهيمنة ، ان يجد الصيغة شبه السحرية التي تحثّ السادة الجدد على التمسّك بحبل المبدأ العظيم القائل بأن «لا إكراه في الدين» ، وعلى الاعتراف لغير معتنقيه بحقّهم في الوجود ، كطوائف لها ملء الحرية في ممارسة معتقداتها وشعائرها العبادية وحياتها الجماعية» [١] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١ .

ويوضح الاستاذ جورج قرم : «غير أنّ القرآن ، بخلاف الديانتين التوحيديّتين السابقتين ، ينظر الى العالم غير المسلم بعين تلحظ الفروق والتمايزات ، ولسوف يحترم المأثور الشرعي الاسلامي هذه الفروق والتمايزات» (١) .

ويستشهد الاستاذ قرم بالآيات القرآنية التي تؤكّد وجهة نظره هذه ، والتي تدعو الى التسامح وقبول المسيحيين في الحاضرة الاسلامية ، ثم يخلص الى القول : «ان مذهب القرآن . . . يفسح مجالاً واسعاً للتوازن بين حسّ الوحدة وبين الاعتراف بالتعددية . . . أمكن لمحمد ان يجنّب العلماء المسلمين شطط الكثيرين من اللاهوتيين المسيحيين الذين لم يحجموا عن الدعوة الى إبادة الكفار وإفنائهم عن بكرة أبيهم بلا تمييز . . . وهذا ما يفسّر ان العالم العربي حافظ ، رغم ما بين الاسلام والمسيحية من سمات وخصائص مشتركة ، على وجود اقليات كبيرة من اليهود والنصارى والمجوس واليزيديين ، بينما محت اوروبا الغربية كل أثر للاسلام فيها» (٢) .

وهذا يؤكّد على ان التعددية المتسامحة نشأت نتيجة لمفهوم الاسلام الى العلاقات بين الاديان ، وهي سمة تميّزت بها المجتمعات

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢١١-٢١٢ .

الاسلامية ، وإن شابها احياناً بعض النكسات والانحرافات .

استناداً الى ما تقدّم ، يتبيّن لنا أنّ التعددية مع الوثنية كانت توفيقية (المنتصر يضمُّ الى آلهته آلهة الشعب المقهور) ومع اليهودية مثّلت ذروة الانغلاق والتعصب العنصري ، ومع المسيحية اضحت تعددية قسرية نتيجة لميل المسيحية الى تحقيق وحدتها ، ولم تتخلّص من هذه الشرعة إلاّ بعد مرحلة طويلة من الثورات ، ومع الاسلام اصبحت تعددية متسامحة تعترف بوجود الآخرين وتتعايش معهم .

التعددية . اذاً ، لم تنشأ بمجرد التقاء المسيحية والاسلام بعد الفتح العربي ، بل هي ظاهرة تاريخية اتّخذت اشكالاً ومفاهيم مختلفة ، وتكرّست بالاسلام الذي حضنها وحافظ عليها وجعل منها ميزة ينفرد بها العالم العربي عامة والمشرق العربي خاصة .

وهذه التعددية ليست مقتصرة على لبنان دون غيره من كيانات المشرق العربي . وليست محصورة على الصعيد الديني فحسب ، دون باقي المستويات الطائفية والاقوامية والعشائرية والقبلية والمناطقية ، وغيرها من التناقضات الاقتصادية والطبقية ، وليست هي اخيراً وليدة مرحلة محددة - الفتح العربي - بل هي ملازمة لمختلف المجتمعات وفي اطوار تاريخية متلاحقة ، فهذه التعددية هي واقع اجتماعي تاريخي في المشرق العربي يشمل مختلف

الاصعدة ، وكلّ نظام او حلّ يجب ان ينطلق منها آخذاً بالاعتبار اطارها الوطني العامّ ومستواها الشامل وبعدها التاريخي .

وفي هذا المجال ، لا بدّ من التمييز بين اتجاهين : الأول ينطلق من التعددية ليبني وطن الحضارة والديموقراطية ، والثاني يستغلّ ظاهرة التعددية ويحرفها عن واقعها حتى تتقلّص الى حدود «دولة» مصطنعة مرضيّة . وبدلاً من الخلاص الوطني الثابت والمستمرّ ، هو يتسلّح بضمانات واهية تخلق فتنة دائمة .

الضمانات

يحاول البعض معالجة مشكلة التعددية بالتمسك بضمانات فئوية واهية ، وهو ينطلق من فرضيات خاطئة اهمها :

أ ـ استحالة التعايش : لقد اكّدت ادبيّات الجبهة اللبنانية وبياناتها على استحالة التعايش بين مختلف الطوائف ، لتبرّر دعوتها لقيام دويلات بحجم الطوائف ، ولا داعي للدخول في تفاصيل وجهة نظرها والردّ عليها ، لأنّ هذه الزاوية قد اشبعت درساً من قبل عدد كبير من الباحثين . التعددية في كتب هؤلاء اصبحت مقولة تستخدم لضرب التعايش ووحدة الوطن بدل ان تكون منطلقاً وسعياً للوحدة والمواطنية .

ب ـ عقدة الخوف : تتسلّح الاقليات عادة بخطر مزعوم ،

لتبرّر مشاريعها الخاصة وتوجهاتها ، والخوف في المشرق العربي لا يقتصر على المسيحيين كما تدّعي «الجبهة اللبنانية» ، بل هو ايضاً ظاهرة متفشّية عند مختلف الانظمة العاجزة ، لأنها قائمة بالتسلّط والهيمنة ضد ارادة شعوبها ، ما يفقدها الشرعية التي هي الضمانة الاساسية والأولية لقيام الدولة واستمرارها .

لم تعد عقدة الخوف حكراً على اقلية معينة او فئة محدّدة ، بل اصبحت حالة عامة تشمل معظم الانظمة والفئات والحكّام ، لأن المشرق العربي خاصة ، يفتقر الى الانظمة الديموقراطية الوطنية التي تضمن الخلاص لكل الفئات التي تضمّها وتعطيها القوّة والمناعة لمواجهة الاخطار والتحديات .

عقدة الخوف لم تعد سلاحاً تشهره «الجبهة» لتبرر سعيها الى التقسيم ، لأنّ الخوف لم يعد فرادة تتمتع به ، بل سمة تشاركها فيه باقي الانظمة والتنظيمات الخائفة على سلطانها من الاندثار وعلى هيمنتها من التقلّص .

استخدمت «التعددية» للتهويل بالخوف واستغلاله ، بينما التعددية هي حالة يمكن تخطي سلبياتها لإزالة الخوف من نفوس الجميع ، وخلق ثقة فعلية بين مختلف الفئات ، من ضمن نظام ديموقراطي وطني مدني يضمن حقوق جميع المواطنين على مختلف مذاهبهم ومشاربهم .

ج ـ العزلة : انطلاقاً من «استحالة التعايش» و«عقدة الخوف» تترسّخ نزعة العزلة والانكماش ، متجاهلة الاسباب الفعلية لبعض المعطيات والظواهر الاجتماعية التاريخية . فالتعددية تصبح دعوة للعزلة ، لأنها تطبع التعدد بالتناقض وتعطيه مسحة ابدية سرمدية بدلاً من ان تفسره تاريخياً . التعددية هي وليدة التنوّع السكاني والتخلف وفقدان الوعي الوطني . استغلها الاستعمار لتقسيم المنطقة الى كيانات ومن ثم تفتت الكيانات الى دويلات طوائف لتمرير المشروع الصهيوني الاستعماري في السيطرة على بلادنا .

التعددية ظاهرة اجتماعية تاريخية ، ويؤدي التسلّح بها والانعزال من ضمنها الى حرب دائمة ، بينما تخطّيها ممكن من خلال قيام بديل حضاري .

التعددية جزء من مشاكل المنطقة ، وحلّها لا يكون بالخلاص الفئوي اي بالحلّ الذي تتوسّله كل طائفة او فئة وتفصّله على قياس حجمها . إنّ الدويلة – الطائفة ليست حلاً للطوائف بل هي تحويل التناحر الطائفي ضمن الدولة الواحدة الى حرب بين دول الطوائف ، سواء اقامت الانعزالية دولة لها او ظلت حركة هامشية ، فهي خطر على نفسها من ذاتها .

ان الخلاص الفعلي هو في الحلّ الشامل الحضاري الذي ينقذ الطائفة وفي الوقت نفسه ينقذ كل الطوائف والفئات ، وبالتالي

المنطقة بكاملها . وبصورة اكثر تحديداً ، ان قيام دولة مسيحية في لبنان لوجود تعددية دينية فيه ، ليس حلاً للمشكلة الطائفية في لبنان ، بل على العكس هو تعنيف للتناحر ، وإحاطة هذه الدويلة بدويلات طائفية او غير طائفية معادية لهذا النمط .

إن الحل الوحيد والممكن للمشكلة الطائفية في لبنان ، والقائمة على اساس التعددية التي تميز المشرق العربي ، هو في قيام نظام وطني ديموقراطي مدني في المشرق ككل يؤدي الى خلاص الموارنة سياسياً ، بحيث ينتفي كل مبرر للخوف او الهيمنة والتسلط ، وبالتالي يؤدي الى خلاص كل الطوائف والفئات فيتحول الماروني والشيعي والسنّي والدرزي وغيره من انسان طائفي محاط بانسان طائفي معادٍ له الى مواطن له حقوق وعليه واجبات محاط بمواطنين يساندونه ويتضامنون معه في المصير نفسه ، ويبنون معاً حياة جديدة هي الضمان الفعلي والمستمر والوحيد لهم وللأجيال الآتية بعدهم .

انطلاقاً من مقولة التعددية ، طرحت وتطرح الانعزالية صيغاً عدة للضمانات التي تسعى اليها للمحافظة على هيمنتها . وهذه الضمانات هي :

١ ـ **الضمانات الاجنبية** : اختار قسم من الموارنة الحماية الاجنبية للمحافظة على امتيازاته ، فتحالف بعض المسيحيين

تاريخياً مع بيزنطيا ، ومن ثم مع الصليبيين ومع اوروبا القرن ١٩ والامبريالية الاميركية والصهيونية مؤخراً . وقد نشأ ايضاً تيار تاريخي مسيحي معارض للاتجاه الاول ، فحارب القوى الاجنبية على انواعها ، معتبراً ان الاستقلال الفعلي لا يقوم على دعائم خارجية ، لأن الدول الاجنبية تتوجّه حسب مصالحها وأهوائها . والاستقلال العملي هو القائم على الارض ، وهو الذي يتمتّع بقوى ذاتية شعبية متضامنة تصونه ، والاستقلال اللبناني كان نتيجة انتصار الفريق المسيحي الثاني الذي اعتبر ان الاتفاق مع المسلمين والمنطقة العربية هو الضمانة الفعلية لاستقلاله ، بينما كان يعتبر الطرف الاول ان الانتداب الفرنسي هو الضمانة لامتيازاته ، وما زال هذا الاختيار يراود البعض حتى الآن .

٢ ـ **الضمانات الامتيازات** : نشأت مع الاستقلال الصيغة المعروفة بصيغة ١٩٤٣ وبالميثاق غير المكتوب ، وهو استبدال «ضمانة الانتداب» بضمانة الميثاق الذي اعطى للموارنة بعض الامتيازات غير المكتوبة وهي :

ـ رئاسة الجمهورية .

ـ قيادة الجيش .

ـ نظام طائفي يتيح لهم اقتسام الوظائف والمغانم اضافة الى

بعض المراكز الحساسة في الدولة خصوصاً في القضاء والأمن العام وغير ذلك .

ـ الانتقاص من عروبة لبنان الفعلية باعتماد صيغة مشوّهة تقول لبنان «ذو وجه عربي» الهدف منها الاستفادة الاقتصادية من «وجه لبنان العربي» والاعتزال السياسي عن القضايا القومية والمصيرية «لعروبة لبنان» .

بعد أقلّ من نصف قرن ، عجز اهل النظام عن بناء دولة ديموقراطية تحقّق المساواة بين مختلف المناطق والطوائف والفئات اللبنانية ، فتصاعدت المعارضة الشكليّة والجذرية ضدّ هذه الصيغة ، ما ادّى الآن وبعد محطات من الصراعات الدموية المدمّرة ، الى ضرورة اعادة النظر فيها بين فئة تخلّت عنها باتجاه التقسيم ، واخرى تريد تحطيمها باتجاه إلغاء الطائفية او تحقيق العلمنة . ولقد طرحت «الجبهة اللبنانية» نفسها في اكثر من مناسبة سقوط الصيغة نهائياً ، وهي تفتّش الآن عن صيغ جديدة لتحافظ على ضماناتها .

٣ ـ الضمانة في التقسيم : تسعى الانعزالية الى تكريس امتيازاتها بتحويل الصيغة غير المكتوبة الى دستور مكتوب ، ينطلق من التعددية ويقيم نظاما على قياسها . ولهذا النظام اشكال عدة منها الفدرالية على انواعها والمناطقية واللامركزية السياسية ، وكلّها

اشكال مختلفة من التقسيم ، هدفها إيجاد ضمانات دستورية للواقع التعددي الذي تدّعيه . من هنا كانت تنظيرات الكتائب حول سقوط شرعية دولة الاستقلال وقيام «شرعية الكتائب» بدلا منها[١] .

٤ ـ **الضمانة في الهيمنة** : وهي تعتمد على التسلّط وتنطلق من تعزيز الغيتو الماروني ، تمهيداً الى مزيد من التوسع لقيام دولة مستقلّة منفصلة ، وهذا النوع من الضمانة يمر عبر الصهينة والاعتماد الكلّي على اسرائيل ، والقطيعة الكليّة مع العرب ، ما يضع لبنان تحت هيمنة اسرائيلية بلباس الانعزالية اللبنانية .

* * *

هذه الضمانات الواهية التي يفتّش عنها فريق من المسيحيين قد جربت وسقطت تاريخياً .

١ ـ التقسيم عرفه لبنان في القرن التاسع عشر بصيغة نظام القائمقاميتين ، ومن نتيجته مزيد من الحروب الأهلية الطائفية (فتنة ١٨٦٠) والصراعات الاجتماعية (ثورة الفلاحين) ١٨٥٨ ما ادّى الى القضاء على النظام بكامله ، ولم يكن حلاّ او ضمانة لأي فئة .

---

(١) جريدة العمل ، عدد ٢٤/ ١٢/ ١٩٨٠ .

٢ ـ التدويل عرفه لبنان ايضاً في القرن التاسع عشر بقيام نظام المتصرفية المضمون من الدولة العثمانية والدول الاوروبية ، وكانت نتيجته مجاعة فتّاكة في لبنان الصغير المدوّل . ومن هنا ولدت الحاجة الماسة لتوسّعه باتجاه السهول الخصبة في الاقضية الاربعة ، والتدويل لم يحل دون مرور الازمات الدولية في لبنان ، لأنّ الحياد المزعوم وهمّي وغير ممكن عملياً .

٣ ـ الاعتماد على الاجنبي ، غربيّاً كان او صهيونياً جُرّب ايضاً في لبنان وفشل . دولة المردة المدعومة من بيزنطيا لم تستمرّ اكثر من عشر سنوات ، وامارات الصليبيين لم تدم طويلاً ، بل سرعان ما سقطت . اما الصهيونية فهي اصلاً مشروع عنصري تهويديّ ، ولن يكون مصير المسيحيين في لبنان بعد التصهين افضل منه من مصير المسيحيين في فلسطين . وارض لبنان لن تكون احسن حالاً من الاراضي المقدسة .

الضمانة الوحيدة الممكنة والمستمرة هي قيام نظام وطني ديموقراطي علماني في المنطقة ، يكون خلاصاً للمسيحيين خاصّة ، ولمنطقة المشرق العربي عامة .


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

- ٢ -

الطائفة الطبقة(*)

تسلّح بعض اطراف الحركة الوطنية ، قبل الحرب وأثناءها ، ببعض المقولات ، منها مقولة الطائفة الطبقة ، والتي سنركّز عليها في هذا السياق .

كان الفكر الماركسي الكلاسيكي في لبنان ، يعتبر ان الظاهرة الطائفية هي مجرّد تغطية وتزييف للصراع الطبقي . ولكن عندما ابرزت الاحداث الاخيرة ، ان الطائفية عامل اساسي موجود في عمق الواقع اللبناني ، عدّل الفكر الماركسي موقفه منها ، ووفّقها مع نظرته الطبقية ، طارحا مقولة الطائفة - الطبقة . فكانت هذه المقولة تصحيحاً خاطئاً لمفاهيم سابقة خاطئة . وهذه البلبلة التي وقع فيها

(*) نشرت في مجلة «فكر» ، مجلد العام ١٩٨٢ .

الفكر الماركسي ، نابعة في الاساس من تحليله السياسي المغلوط للواقع اللبناني ، اضافة الى ان منهجه التحليلي الخاطئ يقوده الى هذا المنحى .

ان مقولة الطائفة - الطبقة هي مقولة مدانة ، لأنها الغطاء النظري للممارسات المنحرفة عند بعض اطراف الحركة الوطنية ، خصوصاً انه ارتكب باسمها الموبقات والجرائم والممارسات الطائفية التي عبّر عنها بالقتل على الهوية ، والتهجير الطائفي ، والقصف العشوائي للأحياء السكنية ، دون أيّ تمييز ، وما عبّر عنه بحرب المواقع ، ما جرّ جميع ابناء الموقع او المنطقة او الطائفة للدفاع عن النفس . لأن الحرب اعطيت شكل حماية المسكن والمتجر والأثاث ، الى جانب حماية الاطفال والنساء والارواح . هذا النوع من الممارسة ، ساعد بشكل اساسي ، القوى الانعزالية على تعبئة صفوفها طائفياً ، وكسب جماهير واسعة جُرّت الى القتال بدون اقتناع بما تطرحه القوى الانعزالية ودون تأييد للمؤامرة ومخططاتها ، بل حبّاً بالحياة ، خصوصاً انه لم يُترك للمواطن اختيار آخر يحميه من الموت . ولا ننسى ان بعض اطراف اليسار ، نظر في هذا الاتجاه ، واعتبر ان توجيه الضربات الساحقة الى الاطراف الانعزالية الضعيفة ، يرهب المناطق الانعزالية القوية . وعلى هذا الاساس ، وُجّهت الضربات المدانة وغير الانسانية ، الى بيت ملاّت والقاع والدامور ، وشُنّت الهجمات على دير الاحمر

وغـيـرهـا ، لا لأن ابناء هذه المناطق يشكلون عـقـبـات في طريق الثورة ، بل لمجرد تأديب اهالي كسروان عبر تأديب غيرهم . وهذه الممارسات الساديّة ، لا تمتّ الى الثورة بصلة ، بل هي غزوات جاهلية تعود الى العصر القبلي ولكن بأسماء يسارية مزيّفة . لأن هذا المنطق ، اضافة الى كونه مداناً ومرفوضاً ، لم يعط ثماره ، لأن المناطق الانعزالية الاخرى بدلاً من ان ترهب ، اصبحت اكثر بأساً وبطشاً ، لأن المواجهة حتى الموت ، هي الخيار الوحيد الذي تُرك لها .

اعتبرت مقولة الطائفة – الطبقة ، ان الطائفة المارونية بصورة خاصة ، والطوائف الكاثوليكية بصورة عامة ، تشكل الطبقة البورجوازية الحاكمة المستغلّة ، والتي تمثّل اقطاعية الارض والهيمنة المالية والمصرفية والصناعية . بينما اعتبرت الطائفة الشيعية بصورة خاصة ، والطوائف المحمدية بصورة عامة تشكل الطبقة الكادحة المستغَلّة . ويستثني هذا التحليل بعض الاستثناءات ، دون ان يحدّدها ، بل يتركها في عالم المعمّيات .

هذا التحليل الخاطئ ، ردّدته ابواق عديدة ، وتبنّته دون أيّ تمحيص او تحليل ، لأنها انبهرت بما صوّرته من عموميات سطحية ، مستفيدة من حقيقة ان الاكثرية العددية من الطبقة البرجوازية ، هي من الطائفة المارونية وسائر الطوائف الكاثوليكية ، كما ان الاكثرية

العديه من الفئات الشعبية ، هي من الطوائف المحمدية وبخاصة الطائفة الشيعية . والسبب التاريخي لهذا الفرق هو دور الاستعمار ، وبخاصة الانتداب ، وتوجّه الطوائف المسيحية وبخاصة الموارنة نحو الغرب ، والارتباط بقواه ، ما سهّل لهم الهيمنة والنفوذ . هذه الحقيقة الموضوعية التاريخية ، لا يمكن لأحد نكرانها ، كما انه لا يمكن الانطلاق منها لتعميم المعادلة الطائفية على المعادلة الطبقية ، واعتبار الطائفة المارونية = الطبقة البرجوازية ، واعتبار الطبقة الكادحة = الطوائف المحمدية . وبالتالي تذويب الطائفة بالطبقة واعتبارهما متساويين وكأنّهما مدلولان لواقع واحد .

هذه الاكثرية النسبية ، يجب ان لا تطمس حقيقة اخرى ، وهي ان في الطائفة المارونية وسائر الطوائف الكاثوليكية ، فئات عمّالية وفقيرة ، منتشرة في عكار والبقاع والجنوب وزغرتا وبشرّي والبترون وجبيل وغيرها . والكدح الذي عانته الطوائف المسيحية ، له بُعد تاريخي ادّى الى الهجرة الواسعة والنزوح ، وبالتالي تفريغ الريف المسيحي بشرياً . ما ادى في الوقت الحاضر الى استفادة هذا الريف من اموال المغتربات . وعلى الرغم من هذا المصدر التمويلي الخارجي ، ما تزال حتى الآن فئات واسعة مسيحية تعاني الفقر والعوز . فكما نرى مسيحيين في الادارات العليا والمراكز الرئيسية المهمّة ، كذلك نجد مسيحيين عديدين في صفوف العمال

والفلاحين والجنود . والهجمات الطائفية من بعض اطراف الحركة الوطنية او المسماة عليها ، استهدفت بخاصة المناطق المسيحية التي معظم سكانها من الفئات المحدودة الدخل ، والتي تعاني الاهمال والتخلّف ، على مختلف الاصعدة الاقتصادية والاجتماعية والصحية والثقافية والتربوية والعمرانية ، كمناطق دير الاحمر والقاع وبيت ملاّت وغيرها . . . بينما المناطق المسيحية التي تعتبر مستفيدة من النظام من خلال المشاريع الحيوية والعمرانية ، لم تصب بأذى ملحوظ .

ان جميع الاحصاءات اكدّت ان الثروة الوطنية توزَّع بصورة متفاوتة على الفئات الاجتماعية ، وتحصر نسبة المستفيدين الرئيسيين من معظم المداخيل بـ٤ في المئة ، ما يستدعي قيام حلف الـ٩٦ في المئة لإسقاط الحكم الذي يحصر الاستفادة بقلّة عددية على حساب اكثرية الشعب . واذا انطلقنا من هذا الاحصاء المعروف نجد ان فئة الـ٤ في المئة ليست كلها من الطوائف المسيحية ، وان كانت نسبة المحمّديين اقل من عدد المسيحيين في هذه الفئة . والعدد الطبقي هو هذه الفئة بالتحديد ، والتي تضمّ بورجوازيين من مختلف الطوائف ، وان توزّعت اعدادهم بنسب متفاوتة . ونجد ايضاً ، ان الطائفة المارونية لا يمكن حصرها بهذه النسبة ، لأن عدداً كبيراً منها ، هو خارج فئة الاغنياء الكبار . كما انه لا يوجد في التاريخ طبقة مستغلّة تشكّل نصف الشعب . لأنه لا

يمكن اقتصاديا وجود نصف الشعب في موقع انتاجي مستفيد على حساب نصف الشعب الآخر الذي يشكل القوة العاملة .

لا يمكن حصر الطبقة بطائفة معينة . فداخل كلّ طائفة يوجد تركيب طبقيّ متفاوت ، والفرق هو في النسبة العددية وليس في وجود الطبقة - الطائفة . والتفاوت العددي يجب ان يؤخذ بالحسبان والملاحظة ، وله مكانه في الدرس والتحليل ، ومن الضروري فهم اسبابه التاريخية وظروفه الموضوعية . لكن هذا المعطى ، لا يغيّر الصورة ويعكس المقاييس ، بل يؤثر بصورة اساسية في التوجه الاعلامي - السياسي - الفكري ، والمردود في التوعية والعمل النضالي التعبوي . فالتوجه الى الفئات المسحوقة ، يعطي مردوداً سياسياً اوسع واعمق واهم من المردود الذي يعطيه التوجه الى الفئات الاقل سحقاً . لكن هذه الحقيقة لا تلغي امكانية الحصول على مردود معيّن عند التوجه الى باقي الفئات .

يوجد فارق اساسي وهامّ بين التوجّه الاعلامي والسياسي لفئة اجتماعية مهيّأة لتقبّل الطرح الثوري الجذري ، وبين تبنّي مطاليبها الفئوية الجزئية ، والتمركز في محورها الصراعي المحدود ، العاجز عن تغيير بنيتها وتركيبتها . التوجه الى ابناء الطائفة الشيعية مثلا اساسي وضروري ، لأنّهم موضوعياً اكثر تقبّلاً من غيرهم للطرح الثوري الجذري ، وذلك بسبب ظروفهم الاقتصادية وما رافقها من

حرمان وتخلّف وإهمال وتشرّد نتيجة الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة . اما حصر التوجه الى هذه الفئة ، وتبنّي مطاليبها حصراً ، والتمركز في محورها الطائفي ، يجعل الطرح الثوري يتقزّم في الجزئيات ، بحيث يقرّ المطالب السياسية كمطالب رجال الدين . الطرح الثوري هو القادر على شدّ هذه الفئة من واقعها الطائفي الى موقعها الثوري . واطلاق صفة الثوري على الواقع الطائفي لا يجعله ابداً موقعاً نضالياً ، والفرق شاسع بين الواقع وضرورة فهمه وتحليله واستيعاب كل معطياته التي هي حصيلة الماضي ، وبين الموقع الثوري الذي هو وعي نضالي وتوق الى المستقبل الجديد .

الثورة الحقيقية هي التي تحمل حلولا جذرية لجميع الفئات الشعبية ، وليست بأيّ حال توازناً بين فئات عدة او هيمنة فئة على اخرى ، لأن الثورة تلغي جميع اشكال الهيمنة لأنها تعبّر عن مصالح الشعب .

ان مصلحة الطائفة المارونية لم تكن هي نفسها مصلحة الطبقة البورجوازية المارونية ، ففي احيان كثيرة كانت المصالح متناقضة : اعتمدت القوى الانعزالية ، كأساس في التعبئة ، على فكرة الدفاع عن وجود الطائفة ، وليس حماية مصالح الطبقة . وحتى المصالح السياسية التي دافعت عنها ، اعطتها بُعداً طائفياً للمحافظة على وجودها . فالحرب التي خاضتها القوى الانعزالية كانت احياناً

كثيرة ضدّ مصلحة اطراف من الطبقة البورجوازية المسيحية . لقد قبلت هذه الفئة بتدمير مصالحها وادوات انتاجها في منطقة المكلّس من اجل ازالة الوجود الفلسطيني في المنطقة . بينما الاقطاع الارضيّ كان مستفيداً . فالحرب ايضاً كانت ضدّ المصالح الطبقية ، بخاصة التجارية والمالية والصناعية والمصرفية التي دُمّرت مؤسساتها وسرقت في اكثر من مكان . وكذلك الاقطاع الارضي الذي كسب في المكلّس والكارنتينا ، خسر اراضي شاسعة في مناطق لبنانية اخرى ، كعكّار والبقاع والجنوب وغيرها . والبورجوازية التي تلعب احياناً دور الوسيط بين الغرب والعرب ، والتي لها مصالح مع العالم العربي ، وقفت بموقع طائفي معادٍ للعرب انسجاماً مع طائفيتها المناقضة لمصلحتها الطبقية الحقيقية .

ان قلّة من البورجوازية المسيحية استطاعت ان تتأقلم مع الحرب وتستفيد من بعض الصفقات التجارية والسرقات وبيع السلاح وغير ذلك . وقد شاركت بالحرب ، اما بدافع طائفي او انتخابي للمحافظة على مكاسب قاعدية ، وإما بدافع طبقي حفاظاً على نظامها الذي خافت عليه من الانهيار ، وهؤلاء يشكلون قلة .

ومن هنا فالفئات الشعبية المارونية لا يمكن النظر اليها من زاوية معادية ، ووضعها كلّها في خانة العدو ، لأنها معبّأة طائفياً ومضلَّلة ، لأنها من المنحى الاقتصادي مستفيدة من فتات الموائد او من اموال المهاجرين ، وقسم كبير منها يعيش في اوضاع متخلّفة

وزيّة . بالاضافة الى انه لا يمكن تجاهل قطاع واسع من المثقفين والنقابيين وأصحاب المهن الحرة .

لا يمكن دراسة الطائفية من زاوية المعادلة مع الطبقة . فالطائفية لا يمكن دراستها من زاوية كيانيّة ، بل لها بُعد قومي واضح ، لكونها ناتجة عن شعور الاقلية بالخوف من الاكثرية في المحيط الطبيعي ، كما ان تحقيق العلمنة في لبنان مقرون بتحقيقها في المحيط القومي . والتوازن القائم في لبنان ، ليس توازناً داخلياً فحسب ، بل له بُعد عربي وعالمي . ومن هنا كان تداخل الاحداث في لبنان الى حدّ اعتُبرت الحرب الاهلية فيه حرباً اهلية عربية ، شارك فيها الفلسطينيون واللبنانيون وعرب من مختلف الأقطار . . .

ان الطائفية مرتبطة بالواقع الاقتصادي وبالنظام القائم ، لكن ليس لها علاقة محددة بطبقة معينة كما يحاول ربطها البعض . انها نتيجة تطور تاريخي في المنطقة ، ولها اسباب موضوعية في واقع الجماعات والاقليات واوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . والدراسة الفعلية للطائفية في لبنان تكمن في تحليل بنية السلطة ، والتي هي ليست محصورة بين طبقة محددة ، لأن طبيعة النظام الاقتصادي في لبنان المتداخل ، لم تفرز طبقات محددة . فالحكم في لبنان هو تحالف رأسمالي اقطاعي طائفيّ ، ولا يمكن دراسة الطائفية وفهم دورها إلاّ من ضمن فهم تركيبة النظام وبنية الحكم فيه .


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

ـ ٣ ـ

الجمهورية اللبنانية بين التسوية السياسية والتسوية التاريخية (*)

من أخطر النتائج التي وصلت اليها الحروب اللبنانية في السنوات العشر الأخيرة ، أن مصير الجمهورية اللبنانية أصبح مطروحاً على بساط البحث . لم تعد الأزمة تدور حول «أيّ نظام؟» لأن النظام سقط ولم يعد يرضي أحداً . عنوان الأزمة اليوم هو «أيّ لبنان» ، وما يجري في السر والعلن هو التداول أو التخطيط لمشاريع تستهدف إعادة النظر في بنيان الدولة ، في حدودها ومستقبلها ، في أساس الهوية والتوجه .

١ ـ التوازن وحدود الجمهورية

نشأت الجمهورية اللبنانية على أساس توازن مزدوج دولي ـ

(*) نشرت في مجلة «المنبر» ، ايلول ١٩٨٦ .

اقليمي على المستوى الخارجي ، وطائفي ـ سياسي على المستوى الداخلي . تعدّل هذا التوازن مع تطور موازين القوى . عشية رسم حدود لبنان وإعلان استقلاله كان قطبا التوازن الدولي الاقليمي هما الغرب ، وخاصة فرنسا وانكلترا من جهة ، والعرب من جهة اخرى .

أما اليوم فأصبح طرفا التوازن هما اسرائيل وأميركا من جهة ، وسوريا والاتحاد السوفياتي من جهة اخرى . وحدود الصراع الاسرائيلي ـ العربي تقلصت الى الخط الأحمر في الجنوب ، كما ان حدود النفوذ السوفياتي ـ الأميركي مرسومة ما بين قمم الباروك وصنين .

اختلّ التوازن الداخلي الذي كان عماده الميثاق الوطني ما بين السنّة والموارنة وذلك بسبب جمود النظام وعدم استيعابه للتطورات والأزمات فعجز عن حلّها سلمياً وتفجر حرباً ضروساً أوجدت قوى طائفية وسياسية جديدة عاجزة عن فرض حل وعن القبول بتسوية .

نتج عن هذا التوازن الذي حكم الجمهورية اللبنانية منذ قيامها «وحدة وطنية» رسمية متوازنة لها حدود جغرافية ـ طائفية ـ سياسية تهتز عند تغيير موازين القوى واختلال التوازنات ، ما أوجد أزمات متعاقبة أدت في نتائج الحرب الى فرط عقد هذه الوحدة

الشكلية التي سماها يوماً كمال جنبلاط «التكاذب المشترك» وأصبحت اليوم أشلاء تتقاتل عليها الميليشيات .

وعجزت جميع الحلول عن تأمين قاسم مشترك لإعادة شباب هذه الوحدة التي تهدد مصير الدولة . منذ نشأت الجمهورية ، تلازم النظام الطائفي السياسي مع الامتداد الجغرافي . يكفي التذكير في هذا المجال بالخرائط المتعددة والمتباينة التي تداولت بها الدول الاوروبية ، او اقترحها اللبنانيون ، قبل ان يحسم غورو أمره ويرسم حدود لبنان الكبير في ايلول ١٩٢٠ .

ان «حدود غورو» لم تكن هي الحدود المسلّم بها تاريخياً للبنان . قبل ١٩٢٠ ، وتحديداً منذ ١٥١٦ كانت جميع أراضي الجمهورية اللبنانية تقع تحت السيادة العثمانية . وحتى ١٥٦٤ ، كانت تتألف من منطقتين إداريتين ، واحدة في الشمال تابعة لولاية طرابلس ، وثانية في الجنوب ، وكانت تابعة لولاية دمشق ، ثم أصبحت تابعة لولاية صيدا التي استحدثت في العام ١٦٦٠ . أما منطقة البقاع ، فكانت جزءاً من ولاية دمشق .

في العام ١٨٦٤ أعاد العثمانيون تنظيم ادارة الأقاليم ، فبقيت منطقة البقاع جزءاً من ولاية دمشق ، وألغيت ولايتا طرابلس وصيدا ، وحلت مكانهما ولاية بيروت . وكانت قد أنشئت في ١٨٦١ متصرفية جبل لبنان بحدود تمتد من أعلى السلسلة الغربية

الى البحر ، باستثناء مدينة بيروت ومنطقتي طرابلس وصيدا . كما ان مدينة الهرمل ألحقت بالمتصرفية .

أما عبارة لبنان فلم تستعمل رسمياً الا بعد إنشاء المتصرفية ، المعنيون والشهابيون عرفوا بأمراء الدروز .

هذا مع العلم ان تسمية «جبل لبنان» لم يكن لها مدلول جغرافي واحد في مختلف العصور ، فكانت تطلق أصلاً على المناطق التي يسكنها الموارنة في الشمال وهي جبة بشري وبلاد البترون وجبيل وهي موطن الموارنة الأساسي . أما منطقة كسروان فلم تكن جزءاً من جبل لبنان إلا في مراحل نادرة . وكان يقابل عبارة «جبل لبنان» ، «جبل الدروز» أو «جبل الشوف» وهي المنطقة الواقعة جنوب كسروان ولم تشملها تسمية جبل لبنان إلا لاحقاً .

اما المناطق الاخرى التي شكلت جزءاً من جمهورية لبنان الكبير ، فكانت مقاطعات مستقلة الواحدة عن الأخرى كبلاد الشقيف وبلاد بشارة المعروفتين بجبل عامل وراشيا والبقاع وعكار . أما المدن الساحلية طرابلس ، بيروت وصيدا فكانت كل منها مركزاً لولايات شملت مقاطعات من جبل لبنان ، وأخرى من فلسطين وسوريا .

٢ ـ لبنان والصراع الاقليمي

هل ستصمد حدود غورو أمام اهتزازات الجغراسيا

(جيوبوليتيك)؟ والى متى سيتمسك جميع اللبنانيين بشعار ١٠٤٥٢ كلم٢؟ فلبنان الذي لم ينعم بحدود طبيعية تاريخية مكرَّسة مع الزمن ، له حدود سياسية رسمية معترف بها في جامعة الدول العربية وفي الأمم المتحدة ، لكنها غير محددة اقليمياً ، ولم تتحول مع الجمهورية اللبنانية الى وعي وطني موحّد ومتماسك .

اقليمياً ، قامت اسرائيل على أساس الحدود المفتوحة . وحتى الآن لم ترسم جغرافيتها خلافاً لمعظم دول العالم . وحدود اسرائيل تتراوح بين مشروعها الطموح الذي يمتد من النيل الى الفرات مرورا بلبنان ، وبين امكاناتها وحاجاتها التي تعتمد القضم والهضم التدريجي عبر سياسة مرحلية في تركيز المستوطنات ، كما حصل في الضفة الغربية ، وكما يحصل الآن في الشريط الحدودي اللبناني .

يقف بوجه هذا المشروع الاستعماري الاستيطاني التوسعي قوى قومية أو وطنية او اسلامية ذات مضامين وتوجهات مختلفة ، لكنها تطمح الى تكوين مشروع مواجهة يتصدى لاسرائيل . لقد أخفقت معظم المحاولات السابقة على انواعها ، لكنها ما زالت تسعى ، وهي تعتبر أن الساحة اللبنانية جزء لا يتجزأ من مشروع الصراع ضد اسرائيل ، وبالتالي أزمته جزء من أزمة المنطقة ، وحل مشاكله لا يحصل بمعزل عن حل مشاكل المنطقة .

هذه المعضلة التي تلهب الشرق الاوسط وتطاول شظاياها العالم بأسره ، أين يقف لبنان منها؟

قسم من اللبنانيين يراهن على اسرائيل ويعلل النفس بالاستفادة من صراعها مع العرب حتى ينمي استقلاله بوجه سوريا . ويتجاهل هذا الفريق أن ميزان التحالف يميل دوماً لمصلحة الأقوى ، فيتحول الأضعف الى أداة بيده يستعمله لتحقيق أغراضه ، ثم يرذله غير آبه «بالأحلاف المقدسة» .

القسم الآخر من اللبنانيين انحاز الى المشروع العربي عامة والسوري خاصة ، وان كان متعثراً وربط مصيره ، بالتالي ، بمصير المنطقة التي ينتمي اليها ، فاستمد قوته من تصاعد نفوذ العرب ، كما ان تشرذم العرب ينعكس ضعفاً على موقعه داخل تركيبة التوازنات اللبنانية . ولم يتمكن هذا الفريق من تشكيل قوة ذاتية موحّدة لها برنامج واضح واستقلالية تحرك ومبادرة قادرة على فرض رؤياها ، او على الاقل المشاركة باتخاذ القرار العربي الداعم لتطلعاتها ، فظلت القوى اللبنانية العروبية رديفاً او تابعاً لسلطة الفلسطينيين او السوريين او العرب ، بحسب مواقع النفوذ على الارض وتبدل الأزمان .

ان نتائج التوازنات الاقليمية عبر الصراع العربي – الاسرائيلي تنعكس ايجاباً أو سلباً على ميزان القوى اللبناني لمصلحة الفريق

الذي يراهن على اسرائيل ، أو لجهة الفريق المنحاز الى سوريا . وبالتالي فإن حدود لبنان الرسمي ستهتز بحسب رياح الحرب : فإما تنقسم جغرافياً الى مناطق نفوذ طائفية ـ اقليمية اذا انتصر مشروع تفتيت المنطقة ، أو تستعاد وحدة لبنان الجغرافية اذا تغلب اتجاه التوحيد في المنطقة . لكن احتمال الضم مستبعد لأن موازين القوى لا تسمح به في الوقت الحاضر . لذلك على العرب تسخير قوتهم لدعم لبنان في تعزيز وحدته الوطنية في وجه اسرائيل ، وإلا سيُترك لقمة سائغة للدولة العبرية تفرخ فيه كيانات طائفية على صورتها ومثالها ، تمهيداً لتعميم نموذجها على المنطقة بكاملها .

فهل تتمكّن القوى اللبنانية الوطنية من صياغة مشروع لإعادة بناء دولة موحّدة تلتف حولها أوسع الفئات اللبنانية المناقضة للتقسيم الطائفي؟

٣ـ جغرافية لبنان بين الوحدة والتقسيم

لبنان الاستقلال هو تجمع مقاطعات وطوائف وأحزاب ، والجمهورية اللبنانية كانت مشروعاً لتكوين دولة . وأبسط مقومات الدولة سلطة واحدة على أرض واحدة ومواطنين متساوين في الحقوق والواجبات . ولقد فشلت دولة الجمهورية اللبنانية في تعميق وعي سكان لبنان لانتمائهم الوطني ليستحقوا شرف المواطنية ، فظل ولاؤهم أقوى للعشيرة والطائفة والمنطقة ، لذلك

عندهم استعداد للتخلي عن مناطق وجماعات أخرى ، وإن كان كل ذلك على حساب الوطن الواحد . كانت دولة الاستقلال شركة مساهمة تستثمر فنادق ومطاعم ومصارف ، ولم يكن هاجسها بناء المواطن الذي يشعر بأن مصلحته من مصلحة كل المواطنين وكل الوطن . لذلك عندما حصل خلاف على الشراكة في السلطة آثر معظم الاطراف فرط عقد الشراكة والاستئثار بمنطقة .

لقد تعددت ألوان الحروب اللبنانية ولها أوجه دولية وإقليمية مختلفة ، أما محور الصراع الداخلي فهو صراع أهل الحكم في لبنان لأن هاجسهم الخاص هو امتلاك السلطة في لبنان وتعزيز المشاركة فيها ، وبالتالي هم مستعدون اكثر لاستمرار الحرب الى ما لانهاية وتسخير كل العوامل الاقليمية والدولية وتقسيم البلد من أجل تكريس دور في السلطة المركزية ، او الاكتفاء بمنطقة نفوذ . أما التسوية الوطنية فمستبعدة ، لأنها ، ضمناً ، تعني تنازلات متبادلة من مراكز السلطة المركزية . الامتيازات هي ملك فريق من الحكام ، والغبن هو انتقاص من نفوذ حكام آخرين . وفي الحرب التي يخوضها أهل الحكم ليعزز كل فريق منهم نفوذه في السلطة يسخّر نفسه لقوى اقليمية ودولية تدعمه من ضمن استهدافاتها ، لكنها توفر له الامكانات والدعم لتعبئة طائفية تجيّش ميليشيا بالسلاح والمال ، وتستنفر النفوس بإيديولوجيا تستغل الدين والاسطورة

وتحرك المشاعر البدائية للبسطاء الذين تسيطر عليهم بالمال والوهم ليكونوا وقود معاركها على السلطة .

لا يقتصر خلاف اللبنانيين على نوعية الحكم وطبيعة السلطة ، بل يطاول الجغرافية وحدود الأرض التي يقف عليها النظام ، لذلك فأزمته مصيرية تطاول وجوده وكيانه . لقد تبنت الجماعات الموجودة في لبنان تصورات متباينة حول جغرافية الوطن حسب هوية كل جماعة ، وهي جماعات طائفية حدودها حدود امتداد الطائفة في المكان ، او حدود تقوقعها في المنطقة ، او جماعات قومية حدودها حدود الأمة تاريخياً فيتسع مداها حسب رؤياها . اما حدود لبنان السياسية الحالية فلقد قامت على أساس التوازن المزدوج الداخلي والخارجي الذي أدى الى توافق مختلف النزعات على رسم الحدود السياسية ، ولقد فشلت الدولة اللبنانية في ترسيخ الوعي لحدود الوطن فتمسكت كل جماعة بحدود رؤياها العقائدية ، طائفية كانت أم قومية ، لذلك عندما اهتز التوازن اهتزت ارضية التوافق وأصبح مصير الحدود السياسية مهددا ، ما أتاح لكل فئة ، بحسب قدراتها وظروفها ، اقتطاع منطقة نفوذ من ضمن رؤياها في الاكتفاء والتقوقع (لبنان الصغير) ، او التمدد الى أبعد من حدود لبنان الكبير (أمة اسلامية ، أمة عربية ، أمة سورية) وهكذا اصبحت حدود الجمهورية اللبنانية حدوداً واهية لا تحميها سلطة فاعلة . فالنظام الرسمي فقد قسماً كبيراً من قوته ونفوذه ،

لكنه ما زال يتمتع بقدرة على الاستمرار ، وحافظ على شكل من الشرعية . وعلى الرغم من عنف الأحداث وعمق التناقضات بين مختلف القوى السياسية والطائفية ، ما زالت المؤسسات الشرعية (رئاسة الجمهورية ، الحكومة ، مجلس النواب) تتمتع بسلطة قانونية وإن كانت شكلية ، فالحلول المطروحة حتى الآن تتخذ من هذه المؤسسات الوسيلة الدستورية للتعديل والتبديل والاصلاح . . ان أقصى مطالب المعارضة هي مطالبة رئيس الجمهورية بالاستقالة او بتقصير مدة ولايته ، وهي مطالب ، في توجهها ووسائل تحقيقها ، تعتمد الطرق الدستورية الشرعية .

السلطة الحالية في لبنان تتوزع بين شرعية لا تملك سلطة كاملة حتى تفرض سلطانها على كامل جغرافية الوطن ، وبين جماعات تمسك بالهيمنة الفعلية على مقاطعات تكبر وتصغر وفق حجم نفوذها . يعاني لبنان اليوم ازدواجية تتراوح بين سلطة مركزية شكلية ونفوذ جماعات على الارض ، ما يذكّر بالصراع التاريخي ما بين الأمير والمقاطعجية ، فقد كان لبنان مقسماً الى مقاطعات عديدة على رأس كل منها مقاطعجي يتبدل ولاؤه ما بين والي عكا ووالي دمشق وأمير الجبل وسلطان الاستانة وملوك أوروبا . تغيرت الاسماء واللعبة ما زالت على حالها .

السلطة الشرعية تملك ولا تحكم ، فضلاً عن كونها مشتتة بين قصر بعبدا والهيئة الحكومية وقصر الصنوبر .

اما السلطة الشعبية فهي تهيمن ولا تملك ، وهي على الرغم من نفوذها على بقعة من الجغرافية لم تتمكن بعد من انتزاع شرعيتها . انها ، من جهة ، تتناحر او تتهادن مع قوى شعبية اخرى مجاورة لها ، او تتنافس معها على أرض واحدة ، ومن جهة اخرى تتنافس في داخلها تيارات واتجاهات متباينة تصل احياناً ، الى التناحر الدامي . ففي كل طائفة يهيمن اتجاه معين من دون أن يلغي التيارات الاخرى التي تصمت خوفاً ، او يغيّب دورها انتظاراً .

ان السمة العامة للمرحلة التي نعيشها اليوم هي تفتيت السلطة ، شرعية كانت أم شعبية ، تمهيداً لتفتيت الجغرافية . وهكذا أصبحت كل الاحتمالات مفتوحة من التقسيم الطائفي الى القضم الاسرائيلي الى التوحيد العربي .

٤ـ المشروع الوطني

أمام هذا الواقع الوجودي المصيري ، يفتش اللبناني عن مستقبله ، ويتحكّم به القلق والضياع . تتراءى أمامه خيارات عدة ، وكل مرة يتغلب فيها اتجاه عام ، سرعان ما يتراجع أمام تغيير دائم لموازين القوى وغياب المشروع الوطني الفاعل القادر على فرض نجاحه .

لقد وصلت المشاريع الطائفية الى طريق مسدود ، خاصة بعد أن فشلت جميع المحاولات الرامية الى هيمنة فريق واحد على كل

لبنان ، كما فشلت محاولات تغليب الاتجاه الواحد داخل كل طائفة .

السؤال المطروح اليوم : من يبادر الى إعطاء دفع جديد للمشروع الوطني اللبناني الذي تلتف حوله كل التيارات الوطنية في جميع العائلات لإعادة الروح الى وحدة لبنان في وجه كل المقاطعجيين الجدد؟

بين احتمالات قيام جمهورية اسلامية ، ومساعي انشاء دويلة مسيحية ، ومخاطر فرض كانتونات «اسرائيلية» هل يمكن صياغة مشروع وطني لبناني عربي؟

ان كل الحركات السياسية والقوى الطائفية ، وخاصة الاحزاب العقائدية ، مدعوة الى استنباط تسوية تاريخية لإعادة بناء دولة ديموقراطية عادلة ، لأن هناك مصلحة وجودية لخلق هذه التسوية ، فالبديل منها هو التشتت والتشرذم والضياع ، خاصة ان موازين القوى الحالية لا تسمح بفرض حلول منفردة ، اسرائيلية كانت أم عربية ، مسيحية أم اسلامية .

هل التسوية ما زالت ممكنة في لبنان؟ سؤال يجاب عنه اذا اتفق اللبنانيون على القواعد التالية :

١ ـ ان الخوف من استفحال العوز ، والخوف من تزايد الفلتان

الأمني ، اصبحا أكبر من «الخوف الطائفي» المتبادل . ما يفرض على اللبنانيين ضرورة إيجاد تسوية وطنية بين الطوائف والأحزاب ، حتى لا تحصدنا المجاعة ودورة العنف .

٢ ـ ان اسرائيل التي لها أطماع توسعية في أرض لبنان ومياهه ، لا يمكن أن تكون إلا عدواً له بسبب طبيعة تكوينها العنصري المعادي لطبيعة لبنان التعددي .

٣ ـ ان لبنان جزء من العالم العربي ، تربطه علاقات خاصة بسورية . ولقد تنوعت الصيغ في هذا المجال : من التكامل الذي وضع أسسه الاتفاق الثلاثي ، الى العلاقات المميزة التي دعا اليها الرئيس أمين الجميل في خطابه الأخير ، الى إطار الفيدرالية التي ينشدها بعضهم ، الى مختلف مجالات الوحدة القومية بين القطرين الشقيقين .

ان القوى الوحدوية مدعوة الى تقديم جهد نظري وصيغة عملية لطبيعة العلاقة ما بين الكيانين التوأمين لبنان وسوريا ، صيغة تقنع القوميين ان الوحدة الوطنية للبنان لا تتناقض مع الوحدة القومية التي ينشدونها ، لأن الوحدة الوطنية هي أرقى من التفتت والتشرذم ، وبالتالي الوحدة القومية ليست إلغاءً للأوطان التي أنشئت على اساس الدولة الكيانية ، بحسب تعبيرها ، بل ان الوصول الى الوحدة القومية المرجوة هو ترقّي العلاقات الدنيا من

المتحد الاجتماعي الصغير تطوراً حتى متحد الأمة الأتم .

كما ان هذه الصيغة يجب ان تقنع غلاة اللبنانيين بأن عروبة لبنان ليست إنقاصاً من سيادته ولا إلغاء لاستقلاله ، بل هي تدعيم للسيادة وصون للاستقلال في وجه اطماع اسرائيل ومشاريع تقسيمه ، في زمن يفرض على الدول الاوروبية ايجاد صيغة تعاونية في ما بينها ، كما ان دول الخليج العربي ودول المغرب العربي الكبير ، تفتش عن اطار للتعاون والتنسيق لا يعطل سيادتها واستقلالها .

فهل ستكون الوحدة الوطنية اللبنانية إطار التسوية التاريخية بين التيارات الطائفية والتيارات القومية لبناء دولة ديموقراطية تضمن حقوق جميع المواطنين وواجباتهم في مختلف الجماعات التي يتألف منها لبنان؟

يقف اللبنانيون اليوم أمام مفترق خطير ، فإما ان يتفقوا على إعادة بناء دولة مركزية ديموقراطية غير طائفية معادية لاسرائيل وقادرة على اقناع العرب بضرورة دعم وحدتهم ، وإما ان يكرسوا خلافهم رسمياً فتقتطع كل قبيلة منهم منطقة للهيمنة ، وترتهن لمهب رياح لعبة الأمم .

على اللبنانيين أن يختاروا : إمّا الوفاق الوطني لإعادة بناء

وحدة وطن صغير جميل يعملون في ما بعد على عملقته ، وإما التقسيم الذي يفسح في المجال أمام اجتياحهم من قبل التفتيت الاسرائيلي والجوع .

ماذا سيختار اللبنانيون؟ ان الظروف الاقليمية والدولية ومدى ارادتهم الذاتية ستقرر مصيرهم كمواطنين ، وستقرر مصير وطنهم كحدود جغرافية مطروحة على بساط البحث .

٥ـ من يوحّد لبنان؟

كيف تستعاد وحدة لبنان؟ سؤال يتقاسم الاجابة عنه فريقان : الأول يعمل على مزيد من تفتيت لبنان لإيصاله الى قعر التشرذم حتى تسهل عملية التوحيد ، حسب زعمه ، والثاني يتمنى إيقاف مسيرة الانحدار الى الهاوية لتجميع القوى وتضافر الجهود من اجل مزيد من التماسك والتضامن تمهيداً لتحقيق الوحدة الوطنية .

من هي الفئة ، او الجهة ، القادرة ، والتي لها مصلحة في اعادة توحيد لبنان؟

هل هي السلطة الموزعة بين الحكم والحكومة؟ أم الوزارة التي تتراوح بين «هيئة حكومية» ووزراء «الشرقية»؟ أم هي الطوائف التي تقاتلت في ما بينها ، ثم تذابحت على الهوية المذهبية وتناحرت بين الأزقة والزواريب؟

هل الجيش قادر على توحيد البلد ، وهو مصنّف الى ألوية مناطقية وطائفية ومذهبيّة؟

هل هي الاحزاب اليمينية واليسارية التي تقاتلت في ما بينها ، ثم وجهت بنادقها الى الحلفاء في الخندق الواحد والصف الواحد ، وانتهت الى حرب داحس والغبراء في داخلها بين «عشائر» تقدمية و«قبائل قومية» تحمل شعار الوحدة ، وهي عاجزة عن توحيد ذاتها؟ لقد أصبح بعض الاحزاب على حجم المناطق والطوائف كما تحوّلت أحزاب أخرى الى حدود الزواريب ومصالح الميليشيات ، ونفوذ «القبضايات» . لقد خسرت الأحزاب العقائدية بريقها الفكري ووهجها الثقافي الحضاري ، ولم تعد مدرسة قيم كما أرادها مؤسسوها ، فهيمن عليها وجه العسكريتارية وقطّاع الطرق ، لقد هزمت الذهنية القبلية عقلانية الاحزاب التغييرية . أما زالت هذه الاحزاب قادرة على تجديد نفسها وتحرير ذاتها لتصبح أمل المستقبل؟

لقد انتقل مشروع تفتيت الوطن والجماعات الى تفتيت الأحزاب اليمينية واليسارية على حدّ سواء .

من سيعيد الى لبنان وحدته؟

ربما المهجرون والجائعون والخائفون اذا توحّدوا وحّدوا لبنان . واذا اتفقوا على تسوية تاريخية مهّدوا الطريق أمام التسوية السياسية .

- ٤ -

دروب التقسيم وطريق الوحدة الوطنية (*)

يجمع اللبنانيون اليوم على طرح السؤال الاساسيّ التالي : متى يتحرّر لبنان من الاحتلال الاسرائيلي ؟ وكيف تستعاد الوحدة الوطنية اللبنانية؟ ويقوم بين هذين السؤالين ترابط عضويّ ، لما بين «متى» و«كيف» من مشاريع تجزئة وتقسيم ، يمكن تسريع تحرير لبنان في حال تمّ تحقيق الوحدة اللبنانية ، كما أن هذه الوحدة مهدَّدة بالتقسيم اذا لم يحصل التحرير . فالتحرير يرتبط اولاً بظروف موضوعية دولية وبأوضاع المنطقة ، وثانياً بقدراتنا الوطنية الذاتية . وبما أن تحقيق الوحدة الوطنية هو خيار ذاتيّ في الدرجة

(١) نشرت في مجلة «مواقف» ، عدد ٤٩ ، شتاء ١٩٨٤ .

الاولى - دون إغفال القيود المفروضة على هذا الخيار - فإنجاز الوحدة الوطنية مسؤولية ملقاة على عاتق الفئات اللبنانية كافّة ، وعامل مساعد في بدء مسيرة التحرير ، وإلاّ يبقى لبنان واقفاً على مفترق مصيريّ ، امام الخيار بين الوحدة والتقسيم . فما هي ، على المستوى الفكري ، دروب التقسيم والتجزئة؟ وما هي طريق الوحدة الوطنية اللبنانية؟

I ـ *الوحدة*

يتمحور الفكر اللبناني المعاصر والفكر العربي عامّة حول مقولات عدة اهمها ثلاث هي : اللّه ، الأمة ، الطبقة . ولكن من هذه المقولات مفاهيم ومدارس مختلفة تتناول كلّ منها تحديد مبادئها ومضمونها وأبعادها ، وتبني على اساسها نسق تفكيرها ونهج عملها ونظرتها للسلطة ، كما ان هذه المقولات ليست معزولة عن بعضها ، بل هي متداخلة ومترابطة ومتفاعلة في ما بينها .

وهذه المقولات الثلاث تتمركز حول الوحدة كاستهداف ومنطلق لإيمانها ولمعتقدها ولممارستها . تؤمن الأديان السماويّة على انواعها ، بوحدانيّة الله رداً على تعدّد الآلهة في الوثنيّة . وتعتقد المدارس القوميّة بوحدة الأمة في التاريخ والمرتجى . وكذلك المدارس الطبقيّة تعتقد بوحدة الطبقة في النضال والمصير .

وهذه الوحدانية التي تلتقي حولها المقولات الثلاث ، لا تقتصر أبعادها على وحدتها الذاتيّة ، بل تتعدّاها لتشمل المجتمع وبالتالي العالم بأسره . . إنها تنطلق من ذاتها لتصير عالماً . . تنطلق الأديان من وحدانية الله لتوحّد مجتمعها وبالتالي عالمها ، وكذلك دعاة وحدة الامة يستهدفون وحدة الشعب والمجتمع وبناء دولة قوميّة موحّدة ، ومن ثمّ توحيد العالم على هذا الاساس ، ودعاة وحدة الطبقة يعملون لقيام ديكتاتورية طبقيّة تزيل الفروقات وتوحّد المجتمع وتسعى الى توحيد العالم من هذا المنطلق .

ركّزت مدارس المقولات الثلاث على التبشير والنضال من اجل عالمها الجديد . أمّا الاساس الذي انطلقت منه هذه المقولات التوحيدية والواقع الراهن الذي تعيشه ومعوّقات مشروعها ، فإنها قليلاً ما تتوقّف عندها ، وكثيراً ما تقفز فوقها وكأنها مسلّمات أو هوامش . أين الوحدة المرتجاة؟ أين نحن من الوحدة ، وحدة الله والأمّة والطبقة؟ إنها وحدة في الصيرورة ، وهذا الجانب هو توقٌ فعليّ وتاريخي ومصيري وخلاصيّ ، لكن ، لا يمكن التوقّف عنده والاكتفاء به ، لأنّ معوّقات الوحدة تزايدت بشكل تصاعدي ، حتى اصبحت العامل الحاسم الذي حوله تدور المسائل والافكار والصراعات .

فالسؤال الذي اصبح مطروحا الآن ، وبشكل ملحّ ، هو : اين الوحدة في الواقع اللبناني ؟

اولاً : وحدانية الله في الدين هي في الواقع الراهن ، مجموعة من الاديان التوحيدية تلتقي على السماوات وتتناقض على الارض . وفي كل دين برزت مدارس متناقضة ، لوجود قوى ومصالح مختلفة في الواقع ، فنشأ عنها اجتهادات متضاربة احياناً ومتهادنة احياناً اخرى ، لكنها مختلفة دوماً .

ثانياً : وحدة الأمة في التاريخ والمصير وقيام دولتها الموحّدة هي في الواقع تجزئة وتفتيت . مهما اختلفت المدارس التي تدعو الى وحدة الامة ، ومهما تباينت رقعتها ، من امة لبنانية او سورية او عربية او اسلامية او غيرها ، انها وحدات في المرتجى . فالامة اللبنانية ، وهي الاصغر ، مقسّمة الى دويلات وطوائف ومناطق لا تحصى ، والعالم العربي مجزأ الى كيانات سياسية متناقضة لا يجمعها إلا حرب البسوس ، وهي أشدّ عداء في ما بينها من عدائها لأي عدوّ مشترك . وترسّخت الانظمة على حجم التجزئة السياسية ، وأصبحت مشاريع الوحدة ضرباً من الخيال ، في ظرف تعجز فيه الانظمة عن تحقيق حسن الجوار والحدّ الادنى من التنسيق .

ومشاريع التقسيم لم تكتف بتجزئة العالم العربي الى كيانات قطريّة ، بل تعمل ايضاً لتفتيت هذه القطريّات الى جماعات تمهيداً لقيام دويلات الطوائف والمذاهب والاقليات ، وهذا ما يضعنا أمام «نيو سايكس–بيكو» .

فالى جانب التجزئة السياسية التي ترسّخت ، نشهد منذ مدة ، وخصوصاً في هذه المرحلة ، تفتيت العالم العربي وبخاصّة لبنان الى جماعات دينية وطوائفية واقليات وعنصريات ومناطق وعائلات وعشائر ، الى ما هنالك من اشكال للتقسيم والتفرقة والتي تتخذ لنفسها محطات ومراحل على طريق استكمال مشروعها الخاص وهي : تأكيد التمايز الثقافي والخصوصية الأقوامية ، ثمّ تجسيد الذاتية وبناء المؤسسات والاطر التي تكرّس التمايز ، تمهيداً للمطالبة بالحكم الذاتي او المشاركة الطائفية ، وصولاً لقيام حكم خاص أقلّوي او دولة للأقليّة . والاقليات ليست دينية فحسب ، بل أقوامية وأجناسيّة ايضاً .

ثالثاً : وحدة الطبقة ، في واقع التشرذم والتجزئة والتقسيم ، يصعب على الوحدة الطبقية ان تفرض وجودها . كيف يمكن تحقيق وحدة الطبقة في ظل تعدد متناقض للأديان والطوائف والكيانات والجماعات الاقلّويّة المتناحرة؟ كيف يمكن تحقيق وحدة الطبقة اي طبقة ، في ظل تبعثر مهني وفئوي ونقابي على ارضيّة نظم اقتصادية مخلّعة وغير مستقرّة ، وكثيراً ما يتداخل التموقع الطبقي مع التفتت العصبوي ، واحياناً يتمظهر الصراع الاجتماعي بأشكال أقوامية او طائفية ، وحتى مذهبية؟

يعيش لبنان ، في مرحلة ما قبل نشوء الجماعة الوطنية ، وفي ظل غياب مفهوم الوطن والمواطنية ، وعلى ارضيّة انماط اقتصادية

متداخلة ومتقهقرة . في مثل هذه الظروف يصعب على الوحدة الطبقية ان تحلّ مكان التناحر العصبوي الطائفي والأجناس ، لأنّ الانسان في المجتمعات المتخلّفة عامة ، يشعر بالتضامن مع ابن عشيرته او طائفته او مذهبه او جنسه ، اكثر من شعوره بالتضامن مع ابن طبقته في العشائر والطوائف والمذاهب والأجناس الاخرى . ان ظهور تقسيمات افقية عميقة هي من خصائص المجتمعات المتطوّرة التي تنعم بنظام اجتماعي دينامي يساهم في تطوير حركة الاستيعاب والاندماج الوطني ، فتفقد مختلف الجماعات تدريجياً خاصّتها التاريخية وتضامنها الفئوي ، لتتحوّل من التمايز والنزاع الذي يشق المجتمع عمودياً ، الى جماعات عصبوية مختلفة ومتناحرة ، الى الصراع من اجل ازالة الفروقات بين المواطنين لمصلحة وحدة المجتمع وتطوّره وتقدّمه .

كما يشهد بعض الانظمة في المجتمعات الرأسمالية تفتيتاً اجتماعياً تعبّر فيه الجماعات احياناً عن ازمتها بشكل دموي ، وذلك للاسباب التالية :

أ ـ عدم حلّ المسألة الوطنية ، تاريخياً ، لكل الجماعات والاقوام والاتنيّات والطوائف على اساس وحدة الوطن والشعب .

ب ـ اعتماد شكل ديموقراطي يخلّ اساساً بمسألة هامة ، وهي مسألة الحرية ، التي تنعم بها جماعة على حساب جماعة اخرى ، في داخل بنية النظام .

ج ـ سوء توزيع الثروة ، ما يجعل الفروقات الاقوامية تبرز بدافع الحرمان والبؤس ، فيتداخل التفاوت الطبقي بالتفتيت الأقوامي ويتجزأ بالتالي المجتمع .

II ـ من الوحدة الى التجزئة

بعد ان استعرضنا التوق الى الوحدة وتشرذم الجماعات ، لا بد من طرح سؤال : أين تكمن مشكلة التعارض بين الوحدة والتجزئة؟ وأين يكمن الخلاص؟

للاجابة عن هذه الاسئلة ، لا بدّ من إحاطة المسألة على مختلف مستوياتها :

اولاً : تعدد الجماعات

انه امر واقع لا يمكن نكرانه او تجاهله ، بل المطلوب تحليله بموضوعية ومعالجته بصدق . انه معطى تاريخي ونتيجة للأنماط الاقتصادية السائدة التي تتميز بالانغلاق والتفكّك ، ويتركّز دورها على التوسّط والسمسرة ، بعيداً عن السوق ، وبالتالي عدم وجود دورة اقتصادية شاملة قادرة على الاستيعاب والصهر .

وفضلاً عن العزلة الاقتصادية التي تعيشها الجماعات ، هناك العزلة الجغرافية والعزلة الثقافية اللتان تولّدان العصبية الفئوية والشعور بالتضامن الإنعزالي وتأكيد الذاتية وتمايزها . «وتبدأ

المشكلة الحقيقية عندما يصبح لهذا التمايز الثقافي وجود سياسي مميّز ، اي تصبح الأقلية او الطائفة حزباً سياسياً وقناة للسلطة» . فتحمل كل جماعة مشروعا خاصاً للهيمنة على كل السلطة او بناء دولتها ضمن اطار هيمنتها .

انّ تجاهل مشكلة الجماعات وطمسها لا يحلاّن المسألة ، بل يكبتانها في اللاشعور الفئوي الضيّق حتى تخرج الى الوعي من خلال الصراع السياسي على السلطة ، كما ان تضخّم مشكلة الجماعات يحملها على مشاريع انتحارية خاصة تستهدف قيام دويلة على حجمها ، متناقضة ابداً مع دويلة الجماعات الاخرى . انّ المخرج المنطقي والواقعي الوحيد هو اعطاؤها الحجم المطلوب وتحقيق الوحدة على قاعدة التنوع . ففي كل جماعة تكمن عوامل مقسِّمة وممزِّقة ، الى جانب عوامل موحِّدة وجامعة ، ما يستدعي البحث لتأكيد عوامل التوحيد ودعمها وتعطيل العوامل المجزِّئة . . كذلك فإنّ في كل جماعة اتجاهات تفرزها القوى الاجتماعية والسياسية فيها ، بعض من هذه الاتجاهات يتمحور حول العزلة والتقوقع ، بينما يتمحور البعض الآخر حول الاتجاه الوطني التوحيدي الذي يسعى الى فك العزلة وخلع طوق التشرنق . وهذا الامر يمكن استقراؤه من خلال دراسة تاريخية للاتجاهات التي كانت تتحكّم في داخل كل جماعة .

ثانياً : طبيعة السلطة

لا تتأزّم مشكلة الاقلية إلاّ في ظل أزمة السلطة الحاكمة . فعندما تعجز فئة حاكمة عن بناء دولة وطنية ديموقراطية تضمن حقوق مواطنيها ، وتفشل في تغيير الحكم ، عندئذ تنشأ مشكلة الاقلية التي تنكفئ على ذاتها من اجل حلّ مشكلتها عبر الحفاظ على سلطتها الذاتية التي تملكها ، او من اجل الوصول الى سلطة وطنية تهيمن عليها . ان المشكلة الفعلية تكمن في وجود سلطة اقلية او في سلطة تقمع الاقلية ، اي باختصار سلطة عاجزة عن ممارسة الديموقراطية وعن المحافظة عليها .

إن الاقلية العصبوية ليس بامكانها ان تتحول الى اغلبية في دول ديكتاتورية ، في حين ان اقلية سياسية توحيدية يمكن ان تصبح اكثرية في دولة ديموقراطية .

وقبل حل مسألة الديموقراطية في النظام الوطني ، وضمان حقوق المواطن ، وترسيخ الوعي الوطني ، لا يمكن حل مسألة الجماعات على انواعها .

ان مشكلة وجود الاقليات وتعارضها مع وحدة الامة مرتبطان اساساً بمشكلة نوع العلاقة بين المجتمع بكل جماعاته ، وبين الدولة التي من المفترض ان تمثّله . وعندما تفقد الدولة شرعية تمثيلها لكل الجماعات ، وتمارس القمع والاستبداد لفرض عقيدة السلطة

الحاكمة النابعة من احدى فئات الشعب وجماعاته ، عندئذ تتأزم مشكلة الاقليات ولا تحل إلا على قاعدة تغيير بنية السلطة الحاكمة .

ثالثاً: التدخّل الخارجي

بسبب وجود جماعات طائفية وعرقية متعارضة ، ولأن السلطة المحلية قد عجزت عن حل هذه المسألة ، تمكّنت القوى الخارجية (العثمانية والصهيونية والاوروبية) من استغلال هذه الوضعية وترسيخها لتمرير مشاريعها في تجزئة المنطقة وتفتيتها والهيمنة عليها ونهب خيراتها .

- السلطنة العثمانية

ورثت السلطنة العثمانية الدولة الاسلامية العربية التي قامت على اساس الاعتراف بوجود الاعراق والاديان والطوائف في داخلها ، فكان المجتمع العربي الاسلامي مجتمعاً تعدّدياً ، لكل جماعة فيه كيانها وأعرافها وشعائرها ، دون ان يلغي ذلك اشكالاً ومراحلَ من المضايقات والاضطهادات التي تداخلت في اسبابها الخلافات السياسية على السلطة ، مع الانتماءات الطائفية والاقوامية والعلاقات او الولاءات مع القوى الخارجية .

استغلت السلطنة العثمانية تعدّد الطوائف والاقوام الذي حافظت عليه الدولة العربية الاسلامية ، وبنت سياستها على قاعدة

«فرّق تسد» ونظّمت الفتن بين الجماعات . ولقد دفع لبنان ، بخاصة ، ثمن هذه السياسة ، مجازر دمويّة أودت بحياة آلاف اللبنانيين من مختلف الطوائف ، ما أضعف اللبنانيين في مواجهة عدوّهم وأفقدهم الكثير من الامتيازات وأغرقهم في عداءات محلية ، ما زلنا نعاني آثارها حتى اليوم .

ـ الدول الاوروبية

مع تفكّك السلطنة العثمانية ، باشرت الدول الاوروبية بالتوغّل التدريجي لاقتسام تركة «الرجل المريض» ، وبدأت مطامع الدول الغربية تتحقق بحصولها على ما عرف «بالامتيازات الاجنبية» ، وهي نوع من التنازل الذي قدّمته السلطنة العثمانية أمام التوغّل الاوروبي بذريعة حماية الاقليات .

ولقد نجحت فرنسا وبريطانيا وروسيا وسائر الدول الاوروبية في الحصول على امتيازات خاصة لحماية الاقليات ، وتعاظم دورها في القرن التاسع عشر حتى اصبحت تتدخل بكل شاردة وواردة .

والدعم الغربي للاقليات اعطاها قدرات اضافية ، فعزّز تمايزها الثقافي ، فضلاً عن ربطها بعجلة الاقتصاد الاوروبي ، ما كرّس دورها كوسيط وتابع ، وعزّز مكانتها في محيطها .

وعلى قاعدة تقسيم الامبراطورية العثمانية واقتسامها ، انتهجت الدول الاوروبية عامة ، سياسة حماية الاقليات وتعزيز

تمايزها الثقافي وتدعيم قدراتها الاقتصادية والسياسية ، تمهيداً لقيام دويلات على قياسها . وبعد سياسة الامتيازات ، صعّدت الدول الاوروبية هجمتها ، مع تزايد نفوذها من اجل قيام دويلات على قياس الاقليات .

تكشف مراسلات الجنرال غورو ورئيس وزراء فرنسا «ميلاران» قبيل معركة ميسلون وبعدها ، عن مشاريع عديدة للتقسيم . . فقد اقترح «ميلاران» على الجنرال «غورو» تقسيم سورية الى ١٣ شكلاً من اشكال الانفصال على اساس الانقسام الطائفي والكيانات العرقية ، والمدن المستقلّة والادارات الخاصة وغيرها ، في حين كان تصوّر «غورو» أن تقام اربع دويلات فقط ، وهذا ما حدث فعلا في ايلول ١٩٢٠ ، عندما اعلن «غورو» تقسيم منطقة الانتداب الفرنسي الى اربع دويلات هي لبنان الكبير ، دمشق ، حلب ، واللاذقية .

واستمرّت فرنسا في سياستها الرامية الى تشجيع إقامة الاوطان الدينية العرقية ، وقد استخدمت الاشوريّين والاكراد في لواء الجزيرة للانتفاض على مركزية دمشق ، واستخدمت الفرقة الشركسية لقمع الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ ، ووعدت بإقامة وطن قومي خاصّ للشركس في الجولان في السنة ١٩٣٩ ، فضلاً عن الدعم الفرنسي لإقامة دويلات مارونية وعلوية ودرزية .

لقد مرّت السياسة الاوروبية بثلاث مراحل في تعاطيها مع المسألة الشرقية .

اولاً : مرحلة التوغّل التدريجي ، وقد عبّر عنها بالمعاهدات الاقتصادية التي حصلت عليها الدول الاوروبية من السلطنة العثمانية ، الى جانب الامتيازات في حماية الطوائف في المشرق العربي .

ثانياً : مرحلة اقتسام العالم العربي في اتفاقيات على مثال سايكس-بيكو التي تعبّر عن نهاية مرحلة التوغّل وبداية مرحلة خلق مواقع على اسس جغرافية جديدة ، هي الكيانات السياسية التي انشأها الغرب ورعاها واستغلّها ، واستعمرها تحت مظلّة بدعة «الانتداب» . .

ثالثاً : مرحلة تفتيت هذه الكيانات ، عن طريق تفكّكها الداخلي الى طوائف وأعراق ، من اجل اضعافها والهيمنة عليها .

- الصهيونية

كمّل الاستراتيجية الغربية في المنطقة ، المخطّط الصهيوني ، فجاء وعد بلفور تتمة لمعاهدة سايكس - بيكو ، فتداخل المشروع الصهيوني الطامع في بناء دولة يهودية في فلسطين ، مع المشروع الغربي الهادف الى تجزئة محيط فلسطين وتفتيته . وهكذا ، بعد

قيام الغرب بدوره ، أكملت الصهيونية هذا المخطط بقيام النموذج لدولة تيوقراطية تقتدي بها سائر اقليات المنطقة ، وعملت اسرائيل على تضخيم مشكلة الاقليات ودعمها لقيام كيانها المميّز ، ونذكر بعض النماذج لهذه السياسة .

١ ـ يقول دايفد بن غوريون انه «التقى والدكتور يهودا ماغنس رئيس الجامعة العبرية مع جورج انطونيوس في منزل الاخير يوم ٢٩ نيسان ١٩٣٦ بهدف التوصّل الى اتفاق «عربي ـ يهودي» وقد أصرّ الدكتور ماغنس على وجهة نظره الداعية الى اعطاء : العلويين واللبنانيين والدروز مقاطعات منفصلة ، وكذلك منطقة شرق الاردن ، الى جانب الدولة اليهودية في فلسطين»[١] .

٢ ـ لقد دعم الصهاينة مشروع المطران تبّوني في اقامة الدولة الدرزية ، و«ان حدود هذه الدولة تمتدّ من جبل الدروز الى الشاطئ اللبناني محيطة بالدولة اليهودية ، وتشمل محافظة القنيطرة وقضاء قطنا وضواحي دمشق وبعض قرى الغوطة الدرزية فقضاءي حاصبيا وراشيا ، ثم الشوف وقضاء عاليه حتى خلدة بما في ذلك الشويفات»[٢] .

ويعلّق «يوئيل دار» على اثر اكتشاف شبكة مقاومة للاحتلال

---

(١) دايفد بن غوريون ، «my talks with arab leaders» ، ص ٥٧ .

(٢) غالب أبو مصلح ، الدروز في ظل الاحتلال الاسرائيلي ، ص ٢٥١ .

الاسرائيلي في الجولان بقوله : «لقد اعتقدنا انّ الدروز هم كاليهود اقلية صغيرة ومضطهدة في الشرق الاوسط الذي تسكنه عشرات الملايين من المسلمين . واعتقد واضعو السياسة عندنا انه اذا نجحوا في ايجاد لغة مشتركة مع الاقلية الدرزية فسيؤثر ذلك على الاكراد في العراق وسورية ، وفي الموارنة في لبنان والاقباط في مصر ، وحتى المسيحيين في السودان»[١] .

٤ ـ ساعد الاسرائيليون الاكراد بارسال الاسلحة والعتاد ، فضلاً عن المدرِّبين ، وهذا ما اكّده الكاتب الفرنسي «جان لارتيجي» في كتابه «Les hurvilles d'israël» .

ولقد اعترف «اريه لدبا الياف» عضو الكنيست الاسرائيلي بأن رئيس الوزراء الاسرائيلي ليفي اشكول اختاره العام ١٩٦٦ ليترأس بعثة اسرائيلية الى شمال العراق ، بهدف تعزيز التعاون مع الملا مصطفى البرازاني ، وقد ضمّت البعثة ، اضافة الى «الياف» كلاً من الدكتور «أوري فرند» ، الدكتور «يساح سيفل» الدكتور «دون ايتسكوف» ، وثلاثة ممرضين[٢] . واكّدت مجلّة نيوزويك الاميركية في ٧/ ٤/ ١٩٧٥ انه «منذ اكثر من خمس سنوات ، والمساعدات الاسرائيلية لم تتوقّف للبرازاني» . وذكر جاك اندرسون في جريدة

---

(١) صحيفة دافار الاسرائيلية ، عدد ٩/ ٤/ ٧٤ .

(٢) صحيفة يديعوت احرونوت الاسرائيلية ، عدد ١/ ٥/ ١٩٧٨ .

«الواشنطن بوست» في ١٧/ ٩/ ١٩٧١ ان «هناك بعثة سرية اسرائيلية في شمال العراق، تقدّم شهريا مبلغ خمسين الف دولار للبرازاني، كما ان الجنرال زني شامير رئيس المخابرات، زار شمال العراق اكثر من مرة.

٥- وجّه الياهو ساسون الى شاريت خطة عمل اوردها في مذكراته ودعاه فيها الى «تضخيم مشكلة الاقليات وبذل الجهود للاستعانة بالاكثرية الشيعية في العراق ضد الاقلية السنية الحاكمة هناك».

٦- الدولة المارونية، لقد ركّز الصهاينة على قيام دولة مارونية في لبنان، وكان لهم جهود واتصالات واسعة في هذا المجال، قبل قيام الدولة اليهودية في فلسطين وبعدها.

قدّم في ٢٠/ ١١/ ١٩٤٦ إلياهو ساسون خطة الى موشي شاريت لكي تبحث في المؤتمر الصهيوني وقد جاء فيها: «... كما يتوجب علينا ايضاً تشجيع العناصر الطامحة لتقسيم لبنان الى دولتين مسيحية واسلامية، او العناصر الطامحة لاعادة لبنان الى حدوده في العام ١٩١٧ واقامة دولة مسيحية نقيّة من العنصر الاسلامي داخل هذه الحدود. ان دولة كهذه في حال قيامها، ستدعم الاهداف الصهيونية في فلسطين».

قال شمعون بيريس زعيم حزب العمل الاسرائيلي في ١١ ايار ١٩٨١ ان «مشكلة الموارنة في لبنان بدأت في مؤتمر سان ريمو في نيسان ١٩٢٠ ، عندما اعلن المفوض السامي الفرنسي عن اقامة لبنان الكبير وضم مناطق ذات اكثرية اسلامية الى جبل لبنان» . كما يؤكد في المجال نفسه أبا إيبان الذي يعتبر «ان عملية إنهاء النفوذ المسيحي تدريجياً في لبنان بدأت يوم إعلان لبنان الكبير»[١] .

وفي المجال نفسه يؤكد الاستاذ ادوار حنين :

«إنّ اسرائيل تعمل من ضمن تصميم عامّ بغية الوصول الى اهدافها التي في رأسها إعادة انشاء مملكة داود . . وهي ترى للتوصّل الى ذلك : تفتيت الدول المحيطة بها وتجزئتها الى دويلات صغيرة لا تخاف وقعها عليها ، فتصبح سيّدة على دول الموارنة والشيعة والسنّيين والدروز في لبنان ، وعلى دول السنيّين والعلويين والدروز في سوريا ، وعلى دول السنّيين والشيعة والاكراد في العراق ، وعلى تجزئة المملكة العربية السعودية الى ما يشبه دول الامارات في الخليج . . .»[٢] .

---

(١) أمثولة من لبنان ، صحيفة «جيروزليم بوست» الاسرائيلية ، ٢٦/ حزيران ١٩٨١ .
(٢) صحيفة «النهار» ، عدد ٢٧/ ٥/ ١٩٨٣ .

ـ لبنان والمشاريع الوحدوية العربية

ان دراسة الوحدة والتجزئة في لبنان ، لا تنفصل عن علاقة لبنان بالعالم العربي ، خصوصاً انّ هذه العلاقة متناقضة ، فهي من جهة ايجابية ، بسبب ارتباط لبنان الجغرافي ، والاقتصادي والتاريخي بالعالم العربي ، وهي من جهة اخرى سلبية ، بسبب التباعد السياسي بين الفئات اللبنانية والعالم العربي .

فلبنان لم يصبح دولة بمعنى نظام وحدة الوطن والمواطنين ، بل هو تسوية بين الطوائف والجماعات ، كما ان توازنه الداخلي مرتبط بعلاقات الطوائف والجماعات بالعالم العربي والغرب تاريخياً ، فضلا عن دور اسرائيل في المرحلة الاخيرة ، حيث أصبحت طرفاً في المعادلة الداخلية اللبنانية وربما الطرف الاقوى .

بعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ ، وبعد توقيع اتفاق ١٧ أيار بين لبنان واسرائيل ، اصبحت وحدة لبنان مع العالم العربي موضوعاً مؤجّلاً بسبب المعطيات والظروف المستجدة على الارض ، فالموضوع الأهم اصبح يتمثّل في كيفية وامكانية المحافظة على وحدة لبنان ارضاً وشعباً .

ان طبيعة التركيبة اللبنانية شديدة الحساسية تجاه المشاريع الوحدوية العربية ، خصوصاً ان طبيعة هذه المشاريع كانت غير

ديموقراطية ، فهي إما طائفية تحمل بذاتها تغليب طائفة على اخرى ، وإما قمعية تبشّر سلفاً بالهيمنة والتسلّط ، فاحتمت ، الطوائف في لبنان ، بالانطواء على الذات او بالاعتماد على قوى في المنطقة او من خارجها ، ما زاد من فرص التجزئة الداخلية وعمّق الخلافات ، وبالتالي أدخل لبنان في الصراعات العربية والدولية ، وأصبحت وحدته معرّضة للخطر ، الى حدّ اصبح معه السؤال الملحّ المطروح اليوم هو : هل يبقى لبنان ، وكيف؟

III - *من التجزئة الى الوحدة*

نستخلص من كل ما تقدم ان الجماعات والطوائف في لبنان هي معطى تاريخي نتيجة الاوضاع الاقتصادية والجغرافية والثقافية والسياسية السائدة ، وقد برزت مشكلة الجماعات ، مع عجز السلطة الحاكمة عن حل مسألة الديموقراطية وترسيخ الولاء الوطني وضمان حقوق المواطنين ، الامر الذي مهّد الطريق أمام القوى الخارجية لاستغلال هذه المشكلة فرسّختها وأزّمتها من اجل تقسيم مجتمعنا وتفتيت قواه ، تمهيداً لنهب خيراته وتغريبه عن واقعه وربطه بعجلة اطماعها ، كما استغلّت اسرائيل هذه الحالة ، لأنها تهدف الى تعميم نموذجها العنصري لتبرير عنصريتها ولتدعيم وجودها وترسيخه ، عبر إحاطة نفسها بدويلات من طبيعتها ، ضعيفة وعاجزة مرهونة لها وخاضعة لهيمنتها ، فضلاً عن كون

مشاريع الوحدة العربية جهيضة بذاتها لفقدان الديموقراطية كممارسة واستهداف .

هذه هي أهم الملاحم لأسباب التعارض بين التوق الى الوحدة وتشرذم الجماعات . . فأين هو اذاً الخلاص؟

لا بدّ من إعادة صياغة مشروع وحدوي لبناني حقيقي يعود الى ينبوع الوحدة وأصالتها ، عبر تحديد مفهوم المقولات الثلاث . كثيرة هي المفاهيم التي تدور حول الله والامة والطبقة ، والتي تساهم في التقسيم والتجزئة بدل الاستيعاب والوحدة ، من حيث كون هذه الوحدة عملاً واعياً متنامياً تصبح توحيداً قسرياً وأسلوباً في القهر والقمع .

اولاً : الدين

وهو رمز وحدة الايمان وتجسيدها تاريخاً ، أعطيَ مفاهيم دينية متناقضة ، نتيجة مواقع المؤمنين في السلطة . والإيمان في الاساس كان تعبيراً عن توق المؤمنين الى الوحدة والتحرّر من السلطة ، وعندما اصبح عقيدة للسلطة ، تحوّل الى اداة تفتيت وتغريب وتجهيل . في لبنان لا يكفي فصل الدين عن الدولة ، او تجاهل الايمان بالالحاد ، فلا بد من موقف ورأي في مسألة الاديان والايمان .

لذا ، فالمسألة المهمة هنا ، تكمن في السؤال التالي : كيف نستطيع ان نعيد الى فكرة الله ، كأداة توحيد ، قدرتها على التوحيد؟ أليس من الضروري إلغاء معوقات التوحيد التي اشرنا اليها في سياق بحثنا ، فضلا عن فصل اللاهوتي عن الاجتماعي ، عبر حركة اصلاح دينية لتصحيح المفاهيم الدينية المنزّهة عن الدنيويات ومصالح المؤمنين؟ أليس من الضروري ايضاً قيام حركة على صعيد الابعاد الانسانية والقيمية والاخلاقية للاديان ، خصوصاً ان الله هو عامل توحيد ايماني ، بينما في الواقع اصبحت فكرة الله التوحيدية ، مجسّدة على الارض جماعات مقسّمة الى اديان وطوائف؟ فهل باستطاعة هذه الاداة التوحيدية ان تمارس قدرتها ، وقد ترسّخت مجزّأة في الواقع؟ ألا يحقّ لنا ان نسأل هل الله الاجتماعي عامل تفريق ام عامل توحيد ، لا سيما وان مفاهيمنا لله اصبحت مشاريع تقسيم وخلافات ، ما يغلّف صراعاتنا على الارض بمفاهيم عن السماوات؟

ثانياً: الأمة

أعطي للأمة مفاهيم مختلفة لا بد من مناقشتها ومقارنتها ونقدها بالتفصيل ، لكننا سنكتفي في هذا المجال بالتمييز بين تصورات الامة المنقوصة والتي تساهم بإثارة مسألة الاقليات ، لعجزها عن استيعابها ، من اجل صهر الجماعات على اساسها ،

وبين تصوّر للأمة قادر على ان يكون مشروعاً مقبولاً لوحدة الجماعات .

هناك مدارس قومية تحدد الامة على أساس الدين او العرق او اللغة او الثقافة او التاريخ والجغرافيا ، منها ما يكتفي بعامل واحد ، ومنها ما يدمج عاملين او اكثر . وفي كلّ الحالات ، فإن هذا النوع من التصوّر يفسح المجال لتفتيت الامة ، خصوصاً في لبنان الذي يتألّف بمجموعه من اقليات وجماعات متعددة الأديان والاعراق والثقافات . فاذا اعتبرنا الدين هو اساس الامة ، برزت امامنا امة اسلامية ومسيحية ويهودية ومارونية ودرزية وشيعية الى ما هنالك من اديان وطوائف .

واذا حددنا الامة على اساس العرق ، اعطينا مبرّراً لعدد من الجماعات بأن تكون امة لكونها تنتسب الى اعراق مختلفة كالاكراد والارمن والعرب والاشوريين وغيرهم كثر ، وكذلك في حال اعتمدنا اللغة او الثقافة في تعريف الامة . فهذا النوع من المفاهيم يساعد ويبرّر الدعوات الاقوامية التي تعتمد اساسا على الدين والعرق واللغة والثقافة . وبدل ان تكون الامة مشروعاً توحيدياً لكل هذه الجماعات ، بأديانها وثقافاتها ولغاتها وأعراقها ، تصبح اساسا لتفتيت وحدة الشعب بمفاهيم «قومية» مجزِّئة .

هذا النوع من المفاهيم للأمة ينقض توق الامة للوحدة ، لكونه

يحمل بداخله نفي ذاته . ففكرة الامة بالاساس هي تصوّر لوحدة الشعب والمصير .

ثالثاً: الطبقة:

لقد بيّنا سابقاً انّ صعوبات ومعوّقات عديدة تواجه وحدة الطبقة في ظل فسيفساء الجماعات وطبيعة الأنظمة الاقتصادية السائدة . من هنا فوحدة الطبقة قادرة ، نظرياً ومصلحياً ، على اختراق كل الانقسامات العمودية وتأمين الوحدة الطبقية على قاعدة إلغاء التمايزات الدينية والعرقية والاقوامية ، لكنّها في الواقع العملي ، لم تتمكن من تحقيق غرضها ، لكون العصبوية الاقلوية ما زالت ضمن تطور مجتمعنا وأوضاعه ، اقوى وأقدر من الوعي الطبقي . . لكن مع تطور المجتمع ومصالحه ، ستلعب الوحدة الطبقية دوراً فعّالاً ، وربما اداة اقدر على اختراق جدار الطوائف والجماعات والعصبويات .

ولقد حاول بعضهم ان يستعين بمقولة الطبقة - الطائفة ، كمحاولة لتوزيع الطوائف على الطبقات ، وهي محاولة جهيضة تجرّ الطبقة الى موقع الطائفة ، وتعجز عن تسخير الطائفة لمصلحة الطبقة . انها محاولة توفيقية غير قادرة على تحقيق وحدة الطبقة من جهة ، ولا وحدة المجتمع من جهة اخرى .

وفي هذا المجال ، لا بد من التأكيد على ان الجماعات ، وان

استحال توحيدها حتى الآن على اساس وحدة الطبقة ، ليست بعيدة عن المواقع الطبقية ، ففي كل جماعة قوى سياسية واجتماعية متناقضة ، وهي ، في الاساس ، تعمل على تفتيت تكتّل الجماعة لمصلحة وحدتها مع الجماعات الاخرى التي تكوِّن مجتمعها .

IV ـ *أين الخلاص؟*

من جهة جماعات متعددة ، ومن جهة اخرى ، الوحدة المتعثّرة ، فأين الخلاص؟

الجماعات على انواعها ، هي نتاج تاريخي اجتماعي ، وليست كتلاً متماسكة ومغلقة . ففي داخل كل جماعة ، قوى واتجاهات يعبّر بعضها عن التقوقع الاجتماعي والتشرنق الوطني ، ويعبّر بعضها الآخر عن الوحدة الوطنية والانصهار الاجتماعي . بهذا المعنى يوجد في المشرق العربي انعزاليات ، البعض منها يعبّر عن نفسه بشكل فاقع ، والبعض الآخر بشكل مستتر . والوحدة ليست فكرة معزولة عن الجماعات ، وإلا تصبح متاهة وشعاراً أجوف . انها مشروع وحدة المجتمع على اساس صهر كلّ القوى والجماعات ، في مشروع مشترك لبناء الدولة (الوطن ، الشعب ، النظام) كأداة توحيد تقوم على الاسس التالية :

١ – التمييز بين ما هو لاهوتيّ وما هو اجتماعي ، اللاهوتي

عامل إغناء روحي وقيمي وتنوّع ثقافي تراثي ، والاجتماعي عامل توحيد موضوعي مصلحي .

٢ ـ الولاء الوطني القائم على وحدة الشعب والوطن ، ما يسهل مشروع الدولة في صهر جميع الفئات والجماعات التي يتألّف منها الوطن والشعب .

٣ ـ اعطاء مضمون اجتماعي ديموقراطي للدولة ، دولة المجتمع وليس دولة الجماعة ، الدولة التي يشعر بشرعيّتها سائر الفئات ، فترسّخ الولاء الوطني للبنان ، وتنظّم العلاقات بين المواطنين على اساس توزيع عادل للثروة ، وضمان الحريات العامة ، واعتبار مصالح الوطن وسيادته واستقلاله فوق كل مصلحة .

على اللبنانيين اليوم ، لا ان يختلفوا في ما بينهم حول مفاهيم الله والامة والطبقة ، بل ان يتّفقوا على تصوّر مشترك للوطن دون ان يغلقوا باب الحوار .




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الثالث

الهوية المارونية بين الاسطورة والتاريخ



المـوارنـة:

سـؤال مسـتمرعـن الـهـويـة(*)

المارونية ، طائفة شرقية ، من شمال سوريا حيث ولدت ونمت وكبرت وامتد أتباعها الى قبرص والعراق وفلسطين والأردن والمغتربات وتمركزت في لبنان . ومن خلال مسيرتها تعرّضت المارونية لأزمات عميقة أثّرت في تشكّل هويّتها الخاصّة وعلى رسم معالم محدّدة لشخصيتها .

أحاول في هذا السياق إلقاء بعض الإجابات عن الأسئلة الآتية :

ـ هل صحيح ان للمارونية شخصية متميزة عن سائر الطوائف ، او الجماعات ، التي جاورتها او عاشت معها ، خلال حقبة من مسيرتها؟

(*) نشرت في جريدة «النهار» ، تاريخ ٩ شباط ١٩٩٩ .

ـ ما طبيعة هذه الشخصية وكيف تكوّنت ، وكم كان لهذه الشخصيّة من دور في بقاء المارونية واستمرارها حتى وصلت الى ما هي عليه اليوم؟

ـ للإجابة عن هذه الأسئلة ، لا بدّ من العودة الى البدايات ، فتاريخ الجماعات خير سجلّ لتحوّلاتها .

نشأت المارونية ضمن ظروف موضوعية وذاتية : فهي ولدت من رحم التيار الاستقلالي الوطني الذي نما شمال سوريا لمقاومة الاستعمار الغربي المتمثّل يومها بالامبراطورية البيزنطية . غير أنّ هذا التيار الاستقلالي واجه ظروفا موضوعية طرأت حين قيام الدولة الدينية الاسلامية وتشريعاتها . كما عجز هذا التيار ذاتياً عن فرض معتقده اللاهوتي التوفيقي ، بهدف توحيد مختلف الطوائف المسيحية المشرقية وبناء قوة محلّية قادرة على القيام بدور فاعل ومستقل عن الامبراطورية البيزنطية وعن الدولة الاسلامية في الوقت نفسه . غير أنّ هذا التيار فشل في بلورة ذاته وفرض نفسه ، الأمر الذي أدّى الى تنازع هذين الجبارين (الدولة الاسلامية والامبراطورية البيزنطية) على الموارنة الذين اصبحوا أسرى لمخطّطاتهما ، فضاعوا وتاهوا بين طموحاتهم الاستقلالية وتجاذب الصراعات ، ما ادى الى تباين تحالفاتهم وتأرجحها الدائم . وبالفعل ، فإنّ قسماً من الموارنة تحالف مع بيزنطية ثمّ مع الصليبيين

ولاحقاً مع الدول الأوروبية والولايات المتحدة وحتى اسرائيل . بينما تحالف القسم الآخر مع الدولة الاسلامية بداية ، ثمّ مع الدول العربية على اختلافها . ونتيجة لهذه التحالفات انقسم الموارنة على أنفسهم وتناحروا وتصارعوا . ولكنهم سرعان ما كانوا يتراجعون عن تحالفاتهم . وهي تحالفات لم يكن لها ان تستمرّ ولا ان تستقرّ ، لأنهم ارادوا دائما ان يتشبثوا باستقلاليتهم او يحافظوا على ذاتية او خصوصية وصلت الى حد المغالاة . وقد ادى ذلك الى هاجس التمسّك بذاتيّتهم حتى لا يضطروا الى هجر ارضهم والضياع في متاهات الغرب ، ولا الى هجر معتقدهم والذوبان في الاسلام .

واذا ما كان التوق الى «الاستقلال» قد تداخل في ذاكرة الموارنة بالنزعة الى التحالف مع الآخرين ، فإنّ نظرتهم ، سواء الى العالم الغربي او الى المحيط الاسلامي ، كانت مختلطة ومشوّشة ، من حيث ان الغرب مناقض لهم وطنياً ، والمحيط الاسلامي على خلاف ديني معهم . وهكذا ، فإنّ الموارنة رفضوا «التغرّب» و«التأسلم» على السواء ، مع انهم «تغرّبوا» احيانا مثلما «تأسلموا» من خلال تحالفاتهم او تنازلاتهم .

ولكن هذا التشوّش في التوجّهات ادى الى حالات من البلبلة وعدم الاستقرار ، جعلهم يخوضون صراعات مستمرة على جبهات عدّة :

١ ـ ضدّ الغرب الذي يريد استغلال الموارنة لتحقيق مشاريعه (الرومنة ، الليتنة ، البزنطة ، الأمركة ، التغريب ، الصهينة) .

٢ ـ ضد الشرق الاسلامي او العربي الذي حاول استيعابهم كي لا يبقوا جسماً غريباً في خاصرته قابلاً للتحول الى اداة غريبة معادية لاستقراره .

٣ ـ ضد الفرق المسيحية من روم ويعاقبة وكاثوليك الذين سعوا الى اقناع الموارنة بمعتقداتهم .

هذه الصراعات اتّخذت احياناً طابعاً سلمياً ، وسوّيت احياناً اخرى بالقمع والدم ، ما زاد من تمسّك الموارنة باستقلالهم متحوّلين من النزعة الوطنية الاستقلالية الى المغالاة في الانطواء والانعزال عن العالم الخارجي ، اي عن الغرب والاسلام والفرق المسيحية الاخرى ، وبدأوا تاليا يعيشون حياة عزلة لازمتهم في مراحل تاريخهم اللاحقة .

وهكذا نمت المارونية في ظلّ حياة العزلة ضمن اطار الدير ـ المزرعة كوحدة اجتماعية اقتصادية مغلقة ، وأوصدت باب الانفتاح والتفاعل . واكتفى فريق من أبنائها ببساطة العيش قانعاً بسلطة الاكليروس وهيمنته السياسية والثقافية .

فهل تتميز «الشخصية المارونية» بسمات تتفرد بها؟ وهل هذه

السمات ملازمة لطبيعتها ، أم نشأت في لاوعيها عبر مراحل التاريخ المتلاحقة؟

والحال أنها سمات ولّدتها ظروف حياة العزلة التي عاشها الموارنة ، مثلما ولّدتها عقدة الخوف التي تنبت طبيعيا في مثل هذا النمط من العيش .

أ ـ حياة العزلة:

تكرّست حياة العزلة عند الموارنة نتيجة لجملة أوضاع وظروف تراكمت عبر التاريخ فطبعت الشخصية المارونية بطابعها . ومن هذه العوامل :

١ ـ بيئة متعددة الطوائف :

نشأت الطائفة المارونية ، وعاشت في منطقة متعدّدة الأديان والطوائف (مسيحية ، إسلامية ، وثنيّة ، يهودية . . .) ما جعلها تراعي وضعها بإزاء الطوائف الاخرى ، كونها طائفة تجاور طوائف اخرى وتواجه على الدوام تحدي المشاركة في المصير ، وتفتّش باستمرار عن صيغة عيش او تعايش او حياة تتوافق عليها مع الآخرين .

على الصعيد المسيحي ، فإن الطائفة المارونية عجزت عن تحقيق هدفها في توحيد المسيحيين في المشرق من خلال طرحها

اللاّهوتي التوفيقي بين مختلف الاتجاهات المسيحية المتصارعة آنذاك . فمن المعلوم أنّ المسيحيين انقسموا بين قائل إنّ للمسيح طبيعتين ومشيئتين ، وقائل بمبدأ الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة . اما الموارنة فاختاروا الحل الوسط ، آملين توحيد المسيحيين المشرقيين في اتجاه واحد ، فبشروا بالطبيعتين وبالمشيئة الواحدة . لكن ما من احد وافقهم ، فتحولوا الى فريق ثالث يخوض الحوارات اللاهوتية احياناً ويخوض صراعات عنيفة مع مختلف الفرق المسيحية احياناً اخرى . وهكذا اصبحوا طرفاً معادياً للجميع ، وما كان منهم إلاّ ان تحصّنوا في عزلتهم دفاعاً عن معتقدهم .

أما على الصعيد الاسلامي ، فقد تجنّب الموارنة السلطة المباشرة للحكام المسلمين . فهم لم يدخلوا في حرب ضد القوات الاسلامية التي اجتاحت مناطق انتشارهم . وتالياً فإنهم لم يخوضوا معارك فعلية ضد الجيوش الاسلامية . ولم يظهروا معارضة عملية وجدّية ضد الدولة الاسلامية . ولكنهم في الوقت نفسه ، لم يدخلوا بحماسة في اطار الدولة الاسلامية . وفضلوا على ذلك طريق الهجرة من المناطق التي كانوا يسكنونها ، شمال سوريا ، والتي سيطرت عليها الجيوش الاسلامية فعلياً . وما كان منهم الا ان التجأوا الى المناطق النائية والجبال المنعزلة الخالية من أيّ اهمية استراتيجية ، والتي لا يمكنها ان تهمَّ المسلمين ولا أن تغريهم

بالإقامة فيها ، وذلك تجنّباً لأيّ احتكاك وتصادم . فازدادت الهجرة المارونية تدريجاً وعلى مراحل ، سواء من المدن الى الأرياف عامة ، او من شمال سوريا الى جبال لبنان ، خصوصا حيث تضمن لهم الطبيعة ما شاؤوه من العزلة ومن الابتعاد عن المواجهة . وقد شجّع هذه الهجرة عامل انقطاع شبكة المواصلات في شمال سوريا عن سوق البحر الأبيض المتوسط ، بفعل المستجدات التي انشأتها الفتوحات الاسلامية .

من جهة اخرى ، كانت المارونية تناقض الوثنية وتصارعها . وفي الواقع قام الرهبان الموارنة بنشر الرسالة المسيحية في الأوساط الوثنية . وهو عمل تبشير لم يكن يخلو من التناحر مع الوثنيين الذين ارادوا المحافظة على مواقعهم في مرحلة تراجع دينهم واضمحلاله .

أما علاقة الموارنة مع اليهود ، فقد كانت صدامية . فاليهود مسؤولون عن المجزرة التي وقعت في العام ٥١٧ وذهب ضحيتها ٤٠٠ راهب خلقيدوني ، والموارنة من ضمنهم . وكذلك كان اليهود أداة القتل والتنكيل ضد المسيحيين كلما تسنّى لهم الدعم السياسي المطلوب . وحالة العداء هذه ، جعلت الموارنة يعيشون في مناطق بعيداً عن اليهود .

المنطقة التي عاش فيها الموارنة ، وخصوصاً في المراحل الاولى لتاريخ نشأتهم ، كانت تتألف من مجموعة أقليات متجاورة . ولم

يستطع الموارنة ان يتحولوا الى جماعة مهيمنة او اكثرية طاغية . وفي الوقت نفسه لم تتمكّن الجماعات التي جاوروها من إخضاعهم أو تذويبهم . وما كان منهم الا ان استكانوا للسلطة الاسلامية المسيطرة سياسياً وعسكرياً ، مع تمسّكهم بمعتقدهم كجماعة متميّزة تجاور جماعات اخرى .

وهذا ما ولد الاختلاف والتصارع ، حيث عاش الموارنة دائماً في ظل الخطر الخارجي والتناحر الداخلي . متعرضين للهجرة والنزوح المستمرين : فتارة كانوا يسيطرون على قرية او منطقة ويطردون سكانها ليتمركزوا فيها ، وتارة اخرى كانوا يغلبون على أمرهم ويغادرون منطقتهم لاجئين الى أماكن اخرى علها تكون اكثر اماناً . ومع الزمن وكثرة الترحال ، تحوّل الموارنة الى «شعب مقتلع الجذور» على حد تعبير الأب بطرس ضو ، وذلك لأنهم نشأوا في منطقة وعاشوا في اخرى واستمرّوا في غيرها . وهكذا ترسخت الغربة في «ذاكرة الموارنة» ، وهي غربة عن ارض تنتقل مع الماروني من مكان الى آخر . فمن الطبيعي اذاً ان يزداد قلق الموارنة على مصيرهم ووجودهم لعدم تمكّنهم من المحافظة على استقرارهم وأمنهم فوق تراب وطنهم . فأصبحت حالهم «وطني حقيبة وأنا المسافر» . ولازمت «ذاكرة الماروني» حالة من القلق والضياع في ترحاله وهو مهجَّر ومهجِّر ابداً ، وراحل ومرحِّل . فقد الانتماء الى ارض محددة مستقرّة ، كما فقد الهوية والوطن .

ويبقى المكان والحدود في ذاكرة الموارنة غير محددين بوضوح : شمال سوريا ، فينيقيا ، الإمارة ، القائمقاميتين ، المتصرفية ، لبنان الكبير ، لبنان الصغير ، الوطن المسيحي ، الوطن السوري ، الوطن العربي ، المغتربات . . .

عاش الموارنة منعزلين في المناطق التي سكنوها محافظة منهم على ذاتهم وأمانهم وإيمانهم من الجماعات والمعتقدات المنتشرة في الأقاليم المحيطة بهم .

٢ ـ اقتصاد مغلق :

ترك الموارنة مناطقهم الزراعية قرب العاصي شمال سوريا ، بعد ان انقطعت طرق المواصلات مع الطرف الآخر للمتوسط ، على أثر الفتوحات الاسلامية وتقلص الامبراطورية البيزنطية . والتجأوا الى جبال لبنان مبتعدين عن البر ومنقطعين عن البحر ، تفاديا للحكم الاسلامي الجديد ، وتجنباً للسلطة المسيحية البيزنطية المستبدة . وعاشوا في اديرتهم يزرعون الأرض ، ويكتفون بالقليل ، ضمن علاقات اقتصادية مغلقة وانتاج زراعي محدود ومرهون بالظروف الطبيعية . وكانت عيشة قناعة وبساطة . واقتصر عالمهم على الدير ـ المزرعة ، حيث حققوا نوعا من الاكتفاء الذاتي القائم على ضرورات الحياة . ولم تكن لهم حاجة تاليا الى محيطهم القريب كي يتفاعلوا معه اقتصادياً ودينياً وثقافياً . وكانوا ، إذا

أجبرتهم تقلّبات الطبيعة وضرورات العيش ، يفضّلون الهجرة والاغتراب الى العالم البعيد ، على التعاون والتعاضد مع الجار القريب .

٣ـ الاكليروس الماروني :

وسط هذه الظروف (اقتصاد مغلق ، خوف من الخارج المسيحي والاسلامي) لم تملك الجماعات المارونية ، وهي قليلة العدد ضعيفة النفوذ ، الا ان رسخت عزلتها حماية لنفسها ، وأغلق قسم منها ابواب الانفتاح والتفاعل ، محافظة على معتقده من تأثير المعتقدات الاخرى المسيحية/ الاسلامية ، وحتى يتمكّن من احياء شعائره وعاداته وتصوّراته حسب طريقته الخاصة . وكان من ذاك ان تعزّز دور السلطة المركزية الأبوية التي تولاّها رجال الاكليروس ، اصحاب النفوذ الاقتصادي (مالكو الأراضي الزراعية) ، واصحاب النفوذ الديني (الطاعة الكنسيّة) .

وهكذا ادى الرهبان والكهنة دوراً هاماً في ترسيخ عزلة الموارنة ابقاء لنفوذهم ومراكزهم الاقتصادية والفكرية والسياسية ، حيث كانوا رجال عمل (مزارعون وحرفيون) ورجال فكر (وعاظ ومرشدون وموجهون) . ومن هنا تنامى الدور الفاعل للكنيسة التي ملكت السلطتين الروحية والزمنية معاً ، وعملت على توجيه ابناء الطائفة في حقول الحياة كافّةً . غير ان بعض الحقب عرف صراعاً

بين الكنيسة والاقطاع وبين رجال الدين والزعماء السياسيين .

ومن المعلوم أنّ الكنيسة المارونية استمدت نفوذها من توسّع ملكيّتها الزراعية التي تسيطر عليها ،ومن وجود العدد الأكبر من الكهنة نتيجة السماح لهم بالزواج على عكس الطقس الكاثوليكي الغربي ، ومن انتشار الرهبانيات والمؤسّسات الاجتماعية والتربوية والأهلية الطائفية .

ثم إنّ وجود المؤمنين كمزارعين أو شركاء أو مرابعين ، ساهم في اعطاء سلطة اكبر لتدخّل الاكليروس في شؤون الناس وتوجيههم دينياً وسياسياً بحسب مخطّطات الكنيسة .

٤ ـ الدولة الدينية :

ترسخت عزلة الموارنة بفعل سيطرة الدولة الدينية (البيزنطية ، الاسلامية ، الصليبية ، العثمانية . . .) وما شرّعته من أنظمة وقوانين (أهل الذمّة ، نظام الملل . . .) . فلم تكن شرائع هذه الدول الدينية تنظر الى المواطن الا انطلاقاً من طائفته ، ما جعل فكرة المواطنية والولاء للوطن غائبة اجمالاً ، لأنّ الطائفة كانت هي الوسيط السياسي بين السكان ودولتهم . كذلك لم يبلور الفكر الماروني صورة واضحة للوطن إلاّ ابتداء من القرن التاسع عشر . وكان يستحيل على المارونية أن تمتلك في نشأتها وطناً خاصّاً بها .

فلا حدود جغرافية محدّدة ومعروفة لها . وكانت السلطة الدينية/ السياسية التي تدير شؤون الطائفة تخاف من ذوبان الموارنة في وطن ما ، وانهيار الطائفة . كما ان الدول على اختلافها والتي عاش في كنفها الموارنة ، لم تعمل على اخراج الطوائف من عزلتها ، ولم تنجح في ادخال السكان الى شبكة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تخرج عن اطار الطائفة . وترسّخ ذلك كله ، في اللاّوعي الطائفي ، عناصر خوف وتناقض أعاقت عملية التحوّل باتجاه الوعي الوطني . هذا الوعي الذي يتجاوز حالة التشرّد والتمزّق وفقدان الهوية ، ويتخطّى العزلة الطائفية الى الولاء الوطني الكامل .

ان العزلة التي عاشتها الطائفة المارونية ، هي التي ولّدت «عقدة الخوف» التي استغلّها بعض المفكرين لبناء ايديولوجية انعزالية حاولت طبع «الشخصية المارونية» بخصائص محدّدة وكأنها ملازمة لها لا تتبدل ولا تتغير .

ب. عقدة الخوف:

كلّ عقدة إنما هي وليدة الجهل والتناقض بين واقع الظواهر والصور المرسومة لها ؛ وهي تقوم على أساس غير عقلاني لتصبح معتقداً جامداً لا يواكب بسهولة التطور الاجتماعي .

ولم تكن عقدة الخوف هذه غير وليدة لحياة العزلة التي

التجأت اليها جماعات من الطائفة المارونية ، ونتيجة لطبيعة الصراع السياسي الذي خاضته مع الجماعات الاخرى ، لكنها لم تكن عقدة لتنبع من طبيعة عنصرية دينية في المطلق .

واذا كانت المسيحية قد استعملت العنف ضد الوثنية وضد الاديان الاخرى ، واذا كانت الطوائف المسيحية اضطهدت بعضها بعضاً بشراسة ودمويّة ، فإن المسيحيين عموماً والموارنة خصوصاً ، لم يعانوا الاضطهاد في المرحلة الاسلامية العربية ،بل تعرضوا لبعض التمييز الذي كان من طبيعة الدولة الدينية وأنظمتها السائدة في ذلك الزمن . كذلك فإن الاضطهاد المملوكي او العثماني مثلا شمل طوائف اسلامية ، وكان احياناً في ما خص المسيحيين بمثابة ردّة فعل لتحالف بعضهم مع الغرب المسيحي ضد الشرق الاسلامي ، وان حصول اضطهاد جزئي في مرحلة محددة لا يعني انه كان شاملاً ومستمراً في كل الظروف . والصراع السياسي ، ولئن اتخذ وجهاً عنفياً (لأنه غير ديمقراطي ولا وطني) ، فهو ناجم عن تناقض المصالح السياسية والاقتصادية قبل ان تكون دوافعه دينية صرفة ؛ مثلما يحاول ان يصوره البعض للتدليل على الطبيعة الدينية العنصرية .

وهكذا ترسخت عقدة الخوف ، لاستغلال القوى الانعزالية لها كمادة تخويف ووسيلة تضخيم ، ولإسقاط أساطير الماضي

وأوهامه إيديولوجياً على الحاضر ، ولإرجاع الخلافات السياسية الى أسباب دينية صرفة ، إخفاءً للدوافع السياسية والاقتصادية وتبريراً لمصالحها الآنية .

إن عقدة الخوف هي إيديولوجية انعزالية ومادة «تفزيع» وتحريض تستغل لتغذية العصبية الطائفية التي تعمل على ترسيخها لأغراض سياسية وطبقية .

وإذا كانت عقدة الخوف هذه استمدّت قوّتها من طبيعة الصراعات السياسية التي خاضتها اطراف الطائفة المارونية مع مختلف الفئات السياسية والدينية من بيزنطيين وصليبيين ومماليك وروم وعثمانيين وغيرهم ، فإن عدم ثبات تحالفات الموارنة السياسية وعدم وضوحها عمّقا حساسيتهم ضد كل الأقوام الاخرى وزاد خوفهم من كل ما هو «آخر» مهما كان اتجاهه ومشربه : هو الخوف من العالم الخارجي (كل العالم الخارجي) الذي انعكس انقساماً داخلياً لعدم استقرار الموارنة ولعدم ركونهم الى قوتهم الذاتية . وكان الخوف يخالج كل فريق منهم دافعاً إياه الى تحالفات خارجية مختلفة ومتناقضة : البعض مع بيزنطية والآخر ضدها ، فريق مع الصليبيين وآخر ضدهم ، اتجاه مع فرنسا وآخر معاد ، قسم مع اميركا وآخر ضد التغريب ، فئة مع اسرائيل وأخرى ضد التصهين ، مجموعة تنادي بالمارونية الرسولية

الحضارية ، وأخرى تقول بعسكرة الدين ، تحالفات شرقاً وأخرى غرباً ، الخ . . .

وكان لا بد اذاً من أن يتفاقم تصارع الموارنة وتناحرهم الداخلي وسط اختلاف تياراتهم . والمفارقة ان خوفهم ازداد عمقاً كلما ازداد عمق تحالفاتهم مع القوى الخارجية المتناقضة ، وتوسل كل فريق حماية نفسه من الخطر المزعوم . ولكن هذه القوى الخارجيّة المختلفة نفسها التي صارعت الموارنة او حالفتهم ، أدت دوراً مهماً في الابقاء على عزلتهم ، وإبراز عقدهم ، اما لمصلحتها في استغلال اوضاعهم وصولاً الى تنفيذ مآربها الخاصة واما لأنها من طبيعة مماثلة للموارنة فعجزت عن استيعابهم وطنياً وديمقراطياً لأنها عجزت عن فهم خصوصيات الجماعات ولم تكن قادرة على التمييز بين مكوناتها وقواها واتجاهاتها .

ساهم الجهل على الخصوص في زيادة عقدة الخوف وتعميقها ؛ والجهل هو غياب الوعي الموضوعي والثقافي عن الحقائق العلمية والتاريخية واستبدالها بالأساطير والأوهام . ونجد أنّ المعلومات المؤكدة غير متوافرة عن تاريخ الطائفة ولا عن معتقدها ، وخصوصاً في مراحل نشأتها . ثمّة إذاً في ذاكرة الموارنة معطيات كثيرة مبلبلة ومشوّشة ، وأخبار متنافرة ، وسير متناقضة ، وتواريخ متباينة ، وثمة غموض ، وإبهام ، وتأويل وتضخيم . . .

وتتغلب العادات والتقاليد والأعراف على الحقائق التاريخية والموضوعية الا في ما ندر . لذا فالماروني العادي تائه في تاريخ طائفته ، يجهل حقيقة ماضيها ولا يعرف سوى القليل عن معتقدها . ولئن وجدت طائفة مارونية كواقع اجتماعي طائفي ، فلا وجود لوعي ماروني لحقيقة تاريخ الطائفة ومعتقدها . وتكفي مقارنة بسيطة بين آراء المؤرخين الموارنة أنفسهم لإظهار مدى التباين والتناقض في المعلومات التي يتداولونها ، والتي غالباً ما لا تتطابق والمعطيات التاريخية العامة .

إن الوعي الماروني النابع من معرفة الوقائع والمعلومات التاريخية شبه معدوم . لكن التعبئة الطائفية ـ السياسية عند الموارنة تصل احياناً الى حدها الأقصى باعتماد الأساطير وإثارة المخاوف الوهمية وتحريك الماضي المبهم . والتعبئة السياسية التي لا تعتمد الوعي العلمي الموضوعي اساساً لفهم واقعها فهي تصبح حالة مرضيّة هوسيّة تؤدي الى كوارث وعواقب وخيمة ، لا تعالج إلاّ بعمق وجذريّة .

إن الوعي المطلوب ان يتسلح به أبناء الطائفة المارونية انما هو عن معرفة حقيقة وجودهم وحقيقة تاريخهم او معتقدهم في الأقلّ . والمؤسف أن هذا الادراك ليس غائباً فقط عند عامة الناس ، بل هو متناقض ومتضارب عند مفكّري الطائفة ومؤرّخيها وقادتها أنفسهم . فالوعي العقلاني التاريخي عند الموارنة هو شبه مفقود ،

واستعيض عنه بحسّ طائفي غريزي شديد الحساسية من «عقدة الخوف» ، هذه العقدة الراسخة في اللاوعي الجماعي ، والتي تشكّل أساس التحريض الطائفي ، ومادة الاستنفار التي يستغلها القادة والمسؤولون من اجل تحريك عواطف الناس واستثارة غرائزهم وإيقاظ مخاوفهم ؛ خصوصاً أنّ السواد الأعظم من أبناء الطائفة المارونية يجهل حقيقة «عقدة الخوف» هذه ، ولا يدري أسبابها وظروفها ؛ كذلك هي تسرّبت الى لاوعي الموارنة بجهلهم ، ولم تنتقل الى وعيهم عبر إدراك الوقائع والاحداث بوساطة المعلومات الدقيقة والمراجع الثبوتية المعروفة . واما الوعي الجماعي ، فإنه معرفة الجماعة بظروفها التاريخية الاجتماعية ، انطلاقاً من وعي واحد للواقع . وعند غياب العقلانية ، فالحسّ الجماعي الغرائزي الذي يتركز على الأساطير والطلاسم هو الذي يتحكم بسلوك الناس . والأسطورة في هذا المجال ليست سوى مجموعة من التقاليد والعادات والأوهام غير العقلانية وغير العلمية ، وليس لها أيّ مستند تاريخي . إن الأسطورة هي وهم يخترعه الناس عندما تغيب الحقائق او تغيّب . إنها وليدة الجهل وعدم الثقة بالنفس وعدم معرفة الذات ، هو الجهل وعدم الثقة اللذان يولّدان الخوف ، ويفسحان المجال أمام التأويل والتفسير ، فينشب الخلاف والتعارض ، لتناقض المصالح والارتباطات والمواقع في السلطة .

الخلاصة:

ما هي السّمات العامّة إذاً التي تميّز بها الموارنة؟

رأينا أن شخصية فئة من الموارنة تأرجحت على الدوام ، بين تكريس حياة العزلة او الخروج منها ، بين تعميق عقدة الخوف او التحرر منها . وتنازعت تيّارات عدّة داخل هذه الشخصية فهشّمت تناغمها ومزّقت وحدتها . وهي كلّها تناقضات عاشها الموارنة وكانت متناحرة حيناً ومتهادنة احياناً اخرى ، ثم تتداخل في مراحل وحالات تالية فتأتي مربكة لتمنع الموارنة من بلورة ذاتهم ضمن خطوط سياسية واضحة واتجاهات مميّزة ؛ وانعكس ذلك في ذاتهم ازدواجية في الشخصية والسلوك .

والازدواجية التي هي تعايش مجموعة من التناقضات في ذات واحدة ، إنما هي حالات مختلفة من التناحر والتهادن ، ثم التصارع بحسب طبيعة العلاقات بين الظروف الموضوعية وانعكاساتها على الظروف الذاتية .

والحال ان الشخصية تصبح أسيرة جدلية مع الخارج وتفاعلاته مع الداخل ، مثلما تصبح عاجزة عن التعبير عن ذاتها بقوّة الهويّة ووضوح السلوك .

ماهي عوامل هذه الازدواجيّة؟

المارونيّ يعيش اولاً في بقعة أرض ضيّقة تشمل الجبل والبحر معاً : الجبل بما يمثله من الشهامة والرجولة ، والتمسّك بالأرض والعمل فيها ؛ والبحر بما يجسّده من رغبة في الهجرة والسفر ، والمتاجرة بكل شيء وحب الربح السريع والسمسرة . . .

انعكس الجبل والبحر في شخصية بعض الموارنة ، فولّدت ازدواجية في القيم والسلوك : فثمّة التشبّث بالأرض من جهة ، وسهولة التخلّي عن الأرض بالهجرة والاغتراب والتشرّد من جهة ثانية . وثمة الولاء الوطني حتى التطرّف ، او السياحة في العالم الى درجة الذوبان . وطن تتقلّص حدوده لتقتصر على جدران البيت ، وعالم يضيق من كثرة الترحال والتنقل . ويضيع الماروني بين جرن الكبة وشجرة السنديان في الضيعة من جهة ، وناطحات السحاب ومتاجر المعمورة من جهة اخرى . انفتاح على العالم لتصبح الدنيا بدون حدود ، او انغلاق على مشاع القرية وطرقات الحارة وقرميد البيت . واما أصدق تعبير عن هذه الحالة فإنما هي اسطورة «حفرون ونفرون» ، والتي خلاصتها : «كان حفرون ونفرون أخوين من أنصاف الآلهة ولدتهما امرأة من الأرض . على قمة ذلك الجبل ولدا ونشأا . ثم ماتت الأم البشرية والتحق والدهما الإله بالغيب وراء الغيوم . حفرون البكر كما يدل اسمه بقي في الجبل «يحفر»

الأرض ويقلب الصخر ويعارك الطبيعة القاسية لينتزع منها رزقاً لحاجة يومه . ولكن الطبيعة غلبت صموده بقساوتها وقحطها . فاذا حفرون يسقط في الجهاد ويموت من بؤس وجوع وبرد مطموراً تحت الثلج على صخرة الجبل الأجرد الحامل اسمه حتى الساعة ، في جرد بلاد جبيل .

أمّا نفرون اخوه الثاني فاسمه دليل مصيره . هذا «نفر» لضيق المجال الحيوي ورحل عن الجبل الصخري وسافر في درب المغامرة . فنزل الى الساحل وأبحر بعيداً في مركب قاده الى التغرب في متاهات العالم . وضل طريق العودة . ثم نسي نفرون اخاه حفرون فلم يعد من القرية ولم يسمع به من بعد أحد . حفرون قضى على الجبل العاري ، ونفرون انطوى في ذاكرة النسيان» .

«فالأسطورة هذه هي أدقّ رمز الى تاريخ الموارنة منذ ما كانوا . ففي نفس كل ماروني يعيش حفرون اللاصق بجبله ، المنكفىء على ذاته ، المنقبض في عزلته . . . يعيش ايضا نفرون المهاجر الذي يناديه الرحيل ، لا الرحيل في مدى المساحات فحسب ، بل في متاهات الفكر»(١) .

من عوامل هذه الازدواجية ثانيا ، أن بعض الموارنة تتقاسمهم عقدة الخوف ، لاعتبار انفسهم أقليّة محكومة تعاني ذلّ الخنوع

(١) الأب ميشال حايك ، جريدة النهار ، تاريخ ٤/ ٦/ ١٩٧٨ .

والحساسية من الآخرين . ولكن ، تتقاسم الموارنة ايضا عقدة التفوق ، التي تريهم أنفسهم أقوى من الآخرين وأرفع شأنا وأحقّ بلبنان وحكمه ، فيثيرون خوف الآخرين والحذر منهم . كذلك تنمو الازدواجية ، وتتعمق التناقضات داخل الشخصية المارونية التي تتوزّعها معاً عقدة الخوف وعقدة التفوق ، وهذه العقدة النابعة من طموح الأقلية الى الحكم والتحكم . وقد تتمثّل هذه الازدواجية خير تمثيل في سلوك رجالات السياسة الذين «يتنطحون» للحكم بإسم الموارنة وعلى قاعدة تعبئتهم ؛ فهم يظهرون غير ما يبطنون ، يتذبذبون في تحالفاتهم وتوجهاتهم السياسية بين طرف ونقيضه . يترددون في مواقفهم ، ويغطون سلوكهم بالخطاب المنمق والتعابير الملطفة ، ولا يكترثون للتناقض بين الكلام والفعل ، والخطاب والموقف . وربما صرح كاريكاتور بيار صادق في «النهار» أصدق تصريح ، بإزاء هذه الازدواجية عندما صوّر الرئيس شارل حلو بلباس الراهب واللباس العسكري في الوقت نفسه . وإذا كان التلاعب السياسي عند الرئيس كميل شمعون يوصف بالدهاء ، فإن مواقف بيار الجميل تجمع بين العنف والوداعة .

أما على مستوى الأفراد ، فمن الملاحظ ان بعض الموارنة يغالي بفرديته حتى الأنانية المرضيّة ، ومن ثم يغالي في الآن نفسه بالارتماء في أحضان الجماعة الطائفية او العشائرية او العائلية حتى الاستسلام والتفاني الشخصي . ولا بدّ لنا ان نورد أخيراً على سبيل

المثال ، أقوال نفر من المفكرين الموارنة الذين يشهد لهم بحرصهم على طائفتهم وبتمسّكهم بها والذين درسوا سلوكها وتاريخها .

يقول الخوري يواكيم مبارك : «الموارنة الذين ينتقلون من طور التمرّد الى طور الولاء بعد ان يكونوا اظهروا ارادة في التمرّد ما فوقه تمرّد . . .»[١] .

أمّا الأب ميشال حايك فيقول في معرض كلامه على الموارنة : «إنهم غلاة في كل شيء ، هكذا هو مناخ الجبل بتناقضات فصوله يعكس على اخلاقهم أضداده العنيفة . . . فهم اكثر الناس تقدمية اذا أمنوا ، واشدهم رجعية اذا فزعوا»[٢] .

ويقول الأب بطرس ضو : «الموارنة نسمة طاهرة تتحول بسرعة الى عاصفة . . .»[٣] .

ولكن الحق يقال ان هذه الازدواجية ليست ملازمة لشخصية كل الموارنة ، ولئن هي سمة طاغية في سلوك البعض منهم . على أن طريق الخلاص لا يستقيم إلاّ بتوعية الذاكرة المارونية على حقيقة الوقائع التاريخية الموضوعية ، وفضح الجانب الأسطوري التعبويّ

---

(١) الخوري يواكيم مبارك ، جريدة «النهار» ، ١٤/ ١٢/ ١٩٧٤ .
(٢) الأب ميشال حايك ، جريدة «النهار» ٤/ ٦/ ١٩٧٨ .
(٣) الأب بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ج١ ، ص ٤١٣ .

للأغراض السياسية السلطوية . وهي ازدواجية سيتمّ القضاء عليها عندما يخرج الوطن من واقع الطوائف والأقليات والجماعات المتفرقة فيستقرّ في دولة للمواطن يترسّخ فيها الولاء للوطن كله حيث يضمن النظام حقوق الجميع وواجباتهم .

وإذا جاز لنا الكلام على «خصوصية طائفية» ، فإنما هي خصوصية موقتة لأنها ارتبطت بمرحلة محددة لم تكن دورة الحياة المجتمعية فيها حسمت بعد تحولات مجرى التطور العام ، باتجاه تخطي خصوصيات العائلات والعشائر والأقوام والجماعات وصولاً الى الشخصية الوطنية الحضارية الموحدة .

اكتسبت الشخصية المارونية هذه الصفات الخاصة من خلال تفاعل الذاكرة الطائفية مع التطور التاريخي للمجتمع الذي عاشت فيه منذ نشأتها حتى اليوم ، حيث ما زلنا نعيش في مرحلة ما قبل اكتمال التكون الوطني ،وهي مرحلة لا تنتهي إلاّ في بناء دولة الوطن والمواطن .

* * *

ليس المجال الآن لقيام دراسة موضوعية مفصّلة هي ضرورية حول طريقة الخروج من حالة الازدواجية الى حالة المواطنية الكاملة . ليست هذه الدراسة سوى محاولة متواضعة لفهم الذات

تمهيداً لفهم الآخر ، على انهما شرطان لا بدّ منهما في سبيل بناء وطن مشترك لجميع أبنائه .



خاتمة

هذا الكتاب ليس دراسة في طبيعة الهوية ومدلولاتها ومعانيها ، هو مجرد سؤال مطروح على الموارنة بشكل ملحّ في مختلف حقبات تاريخهم الطويل ، وما زال هذا السؤال مطروحاً حتى اليوم ، وما زال بحاجة الى جواب حاسم حتى يخرج الموارنة من حالة التساؤل والضياع الطائفي الى حالة اليقين والوعي الوطني .


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

الفهرس



للمؤلف:

- تهجير الموارنة الى الجزائر ، دار ابعاد ، ١٩٩٤
- عروبة يوسف بك كرم ، دار ابعاد ، ١٩٩٧